

ذكر بقية الخبر عن دولة الامير ابي عبد الله

القايم بامر الله

قال ابن القاضي ان السلطان ابا عبد الله القايم اجتمع بالشيخ الصالح ابي عبد الله محمد بن مبارك المتقدم الذكر بموضع يقال له اق من بلاد السوس الاقصى فتكلم معه ثم رجع الى قراره من بلاد درعة وذلك عام خمسة عشر وتسعمائة وفي العام المقبل بعده وهو عام ستة عشر بعث له فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل واستدعوه الى تقديمه عليهم وتسليم الامر اليه فلبى دعوتهم واجاب رغبتهم وجاء معهم الى قرية يقال لها تدسي قرب تارودانت فبايعه الناس بها واصبحوا معه بقلوب متفقة واغراض على الجهاد مجتمعة وموافقة فندب الناس الى مقارعة النصارى واجلاهم عن مرسى تفتنت فاستدب معه جموع حافلة من المسلمين وعمدوا الى النصارى فناوشهم القتال ففتح الله له النصر ومزق اشلاء الكفر بمخالب الظفر واخرج حية الغي من حجرها واعاد شريد الدين الى وطنه فلما راي ذلك المسلمون تيمنوا بطاعته وتفاءلوا بطايره الميمون وزادهم ذلك محبة في جانبه وتعظيماً لمكانته ثم انه رجع الى مكانه من تدسي المذكورة فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك منافرة ادت الى ارتحاله عنها ورجوعه الى درعة فلم يزل بدرعة الى عام ثمانية عشر فرجع الى مكانه من تدسي واطمأنت به دارها وازال الله ما كان ازعجه عنها ثم دعا الناس الى بيعة اكبر ولديه ابي العباس احمد الاعرج فبايعه الناس ثم جاء اشياخ حاحة والشياطمة لمبايعة من حسن سيرته ونصر لوائه فشكوا له امر العدو الكافر في بلادهم وشدة شوكته عليهم وطالبوا منه ان ينتقل اليهم هو وولده ولي عهده المذكور فاجابهم الى ذلك وخرج معهم هو وولده الى محل يقال له افعل من بلاد حاحة وترك ولده

الآخر الاضرابا عبد الله محمد المهدي بالسوس يمهّد به المملكة ويقعد اساس الملك ويباكر مع العدو ويراوحه ويبقى الامام ابو عبد الله القايم بمكانه من افعل الى ان توفي به رحمه الله عام ثلاثة وعشرين وتسعمائة وفي هذه السنة استولى الترك على الجزائر وتلمسان وما والاها وتملكوا مدن المغرب الاوسط ولم يكن لهم قبل ذلك تملك في المغرب ولا صولة وسبب ذلك ان الشيخ الامام العالم ابا العباس احمد بن القاضي الزواوي كانت له همّة شديدة في غزو الكفار وقوّة شكيمة عليهم وله مع ذلك شهرة عظيمة في بساط المغرب الاوسط وجباله وفيه قال الشيخ سيدي عبد الله الهبطي ما رايت احداً قام قيام الارائة النبويّة على اصلها من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الا رجلين سيدي احمد بن القاضي في زواوة وسيدي سعيد بن عبد المنعم في حاحة ولما راي ابو العباس المذكور قوّة شوكة النصارى الكفار وانتشارهم في بلاد المغرب وضعف المسلمون عن مقاومتهم كاتب الترك وعرفهم عزّة هذه البلاد لما يسمع من شدّة الاتراك في المعارك ونجدتهم في الحروب والمضايق وارهابها للكفرة فقصده بحسن نيّته ان يرفعوا من عزّة الاسلام ما انخفض ويقوّوا من امره ما ضعف وقال ان بلادنا بقيت لك اولايك اوللذئب فاقبل الترك نحوه مسرعين وجعل هو يحضّ الناس على اتباعهم والانخراط في سلكهم والسمع والطاعة لاميرهم عروج التركاني الذي هو الباي فيهم فدخل الترك الجزائر وتلمسان ثم انهم مكروا بالشيخ وغدروا به خوفاً على رياستهم فقتل رحمه الله شهيداً بعد الثلاثين والتسعمائة ولما اخذ الترك تلمسان اكثروا فيها الفساد ونهب عروج اموال اهلها وادار عليهم دايرة البوار والسوء ومزّقهم كلّ ممزّق وخرج عنهم الى بنى يزناس فاشفق منه اهل تلمسان وخافوا منه اذا رجع اليهم ان يستاصلهم فجاءوا الى الشيخ الامام عالم تلمسان اذّاك ابي العباس احمد بن ملوكة فشكوا اليه ما نابهم منه وما يخافون من اوبته فانقبض الشيخ انقباضاً عظيماً ثم ضرب الارض بيده وقال والله لا يرجع لتلمسان ابداً اعتماداً منه

على الله تعالى فكان كما قال وقتل عـروج ومن معه من الاعلاج والاتراك
فكان الشيخ ممن قال في حقه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ان من عباد
الله من لو قسم على الله في شيء لابرّه ولما توفي السلطان ابو عبد الله بالمحلّ
المذكور من بلاد حاحة دفن هناك بازاء ضريح الولي الصالح والقطب الواضح
شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة ابي عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزوليّ
مؤلف دلائل الخيرات وذلك قبل ان ينقل الى مراکش ولما نقل الشيخ الجزوليّ
على يد السلطان ابي العباس الاعرج نقل السلطان المذكور اياه المذكور ايضاً فدفن
بازاء ضريح الشيخ الجزوليّ حيث هو اليوم من مراکش وكان سبب نقل الجزوليّ
ان عمر المغيطي الشياظمي ويعرف بالسياف قدم بعد موت الشيخ مظهراً طلب نار
الشيخ الجزوليّ ممن سمّه اذ مات مسموماً وصار يدعو الناس الى نفسه واخرج
الشيخ من قبره وصار يحمله واينما توجه به ينصره الله على اعدائه الى ان قل
عمر المذكور في قضية طويلة فلما ولى الاشراف خافوا ان يثور عليهم احد فيفعل
مثل ما فعل عمر فنقلوه الى مراکش وقيل ان الحامل لهم على نقله انه ذكر لهم
ان تحت كسراً قتلوا للحفر عليه بقصد نقله الى بلادهم والله اعلم وكان ذلك في
حدود الثلاثين والتسعمائة والامر لله سبحانه

ذكر الخبر عن دولة السلطان ابي العباس

احمد المدعو الاعرج رحمه الله تعالى

ولد رحمه الله حسباً ذكره ابن القاضي عن بعض الثقات ممن وثق به عن
عبد العزيز بن يعقوب الاحسن سنة احدى وتسعين وثمانماية وبويع باشارة
ابيه عام ثمانية عشر وتسعمائة ولما اخذ له والده البيعة على الناس وتوفي صرف
همته الى تمهيد البلاد واقتناء الاجناد وتعبية الجيود الى الثغور واستكثر من شن

الغارات على العدو الكافر بتالمست واسفي وكان النصارى قد عاثوا في السواحل مفسدين وخيموا بشطّ البحر من كلّ جهة وتاجية فاجلاهم من تلك النواحي وطهر الله من نجاستهم تلك البقاع والمناحي ويقال أنّ النصارى دمرهم الله لما راوا ما وقع بمن منهم بالسوس من القتل والسبي اخلوا ازّمور ورباط اصيلا من غير قتال فسارع جماعة من ابطال المسلمين وفيهم الشيخ ابو عبد الله محمد بن ساسي والشيخ ابو محمد عبد الله الكوش الى ثغر ازّمور يحرسونه حتى يجتمع فيه من المسلمين ما يقمع الكفرة ويذود عن بيضة الاسلام مخافة ان يرجع اليه العدو بعد ذلك فكان من قدر الله انّ العدو رجعوا اليه فاخذوا جميع من وجدوه هنالك من المسلمين واسروا الشيخين المذكورين الى ان اقتديا بعد ذلك ويقال ان الشيخ الكوش لما افتدي وعزم على الخروج وكان ملكاً لامرأة نصرانية قالت له انّ عندي كتباً من كتب المسلمين فخذها فجعلها الشيخ في قفّة وحملها على راسه فكان من جملة تلك الكتب تنبيه الانام المعروف في الصلاة على خير الانام صلى الله عليه وسلم فكان ذلك اول دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور ثم انّ السلطان ابا العباس احمد الاعرج لما بعد صيته وانتشر في البلاد ذكره وعلا امره وملك جميع البلاد السوسية هرع الناس اليه وقصدوه من كلّ جهة ووفدوا عليه وكاتبه امراء هنتاة وملوك مراكش ودخلوا تحت طاعته فدخل مراكش في حدود الثلاثين والتسعمائة ثم انّ المريّني بلغه الخبر وهو بفاس بدخول الاشراف الى مراكش فاقبل عليه في جموع عديدة مع وزيره ابن عمه مسعود بن الناصر فلما رأى السلطان ابو العباس ما لا طاقة له به من المريّني تحصّن منه بمراكش وشحن اسوارها وملاها من الرماة ونصب الانقاض ودام الحصار كذلك ايّاماً فيحكى أنّه قيل للشيخ العارف بالله القطب الكبير ابي محمد سيدي عبد الله الغزواني وكان اذّلك قد استوطن مراكش بعد ما وقع له من بنى وطّاس ما وقع من سجنهم له ولاصحابه وهو الذي لما توجه الى مراكش من فاس اخذ برنوسه

في يده وجعل يشير به وهو يقول سيري دمي ياسلطنة فاس الى مراكش ثم
انّ اهل المدينة سئموا من الحصار فركب مع اصحابه وخرج من باب مراكش
المعروف بباب الشيخ ابي العباس السبتي فوجد رماة المريني يرمون من
بالاسوار من اهل المدينة فوقف الشيخ يعتبر فجاءت رصاصة وضربت في
صدره وخرقت الحية عليه والتصقت بلحمه وصارت كالعجين كأنها وقعت في
صخرة صماء فقبض الشيخ عليها بيده وقال هذه خاتمة حربهم ثم دخل
الشيخ المدينة فوردت الانباء على المريني في تلك الليلة بأن اولاد عمه قاموا
عليه بفاس ونبدوا دعوته فاصبح راحلاً عن مراكش وظهر مصداق ما قال
الشيخ الغزواني ولم يعد للمريني وصول مراكش بعد ذلك ولا بلوغ
لاحوازها بل كان السلطان ابو العباس يتلاقى معه في تادلا واحوازها وكانت
بينهما معركة بموضع يقال له انماي وذلك في ذي القعدة من عام خمسة
وثلاثين وتسعمائة فافترقا على اصطلاح ثم حرك له المريني ايضاً فالتقيا بآبي
عقبة احد مشارع وادي العيد فوقعت الهزيمة على المريني وكان يوم الجمعة
ثامن صفر عام ثلاثة واربعين وتسعمائة ولما رأى الناس ما وقع بين
السلطانين المريني وابي العباس الاعرج من التهالك على الملك والتقاتل
عليه وفناء الخلق بينهم دخلوا بينهما بالصلح والتراضي على قسمة البلاد
وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء منهم سيدي عمر الخطّاب دفين
جبل زرهون وسيدي المحجوب المعروف بابي الرواين وكان رجلاً مجذوباً
ذا قلق وانزعاج فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة ان يفسد على الناس
شغلهم فلمّا دخلوا على السلطان ابي العباس الاعرج واخيه محمد الشيخ
واعلموهما بما قدموا لاجله وجدوا فيهما فضاضة وغلظة وقلة مبالاة بذلك
وامتنعا من المساعدة على ما اراد الناس فحلف الشيخ سيدي عمر الخطّاب
لادخلتما فاساً ما دمت على وجه الارض فما دخلاها حتى مات الشيخ
الخطّاب بعد مدة فكان بعضهم يقول لو علم بنو مرين شيئاً ما تركوا سيدي

عمر الخطاب يدفن ولرفعوه في تابوت على الاعناق لانه قال ما دمت على وجه الارض هكذا ساق هذه الحكاية صاحب تمتع الاسماع وذكر في شرح زهرة الشماريح ان الصلح انبرم بين السلطانين على ان للاشراف من تادلا الى السوس وللمريني من تادلا للمغرب الاوسط وان من حضر الصلح المذكور قاضي الجماعة بفاس ابو الحسن علي بن هارون الطغري بالطاء مطغرة تلمسان والامام الشهير ابو مالك عبد الواحد بن احمد الوثرسي وغيرهما من مشايخ فاس ويذكر انه لما تواطأت كلمة الحاضرين على الصلح وعقدوا شروطه وهدأت الاصوت وسكن المجاج اوتي بدواة وفرطاس ليكتب الصلح فما وضعت بين يدي احد من العلماء الحاضرين الا وجم وانقبض ودفعهما عن نفسه استحياء في ذلك المحفل ان يكتب ما لا يناسب الجهتين فقام قاضي الجماعة المذكور واخذ الدواة والقرطاس واساودها ووضعها بين يدي ابي مالك المذكور فانشا ابومالك في الحين خطبة مليحة ونسج الصلح على منوال عجيب واخترع لذلك اسلوباً بديعاً تحير فيه الحاضرون وعجبوا من ثبات جاشه وجموع قريحته في مثل ذلك المشهد العظيم الذي تخرص فيه السن الفصحاء هبةً واكباراً فقام قاضي الجماعة وقبلة بين عينيه وقال له جزاك الله عن المسلمين خيراً وما هو باول بركاتكم يا آل ابي بكر وكان ذلك كله في حدود اربعين وتسعمائة

ذكر الخبر عن خلع السلطان ابي العباس الاعرج

وسجنه الى وفاته وسبب ذلك

كان ابو العباس الاعرج رحمه الله من السلطنة وضخامة الدولة بالحل الذي وصفناه قبل وكان اخوه محمد الشيخ اصغر منه سنّاً تحت طاعته وواقفاً عند

اشارته وكان ابو العباس يستشير ويفاوضه في مهمات الامور وعظايم النوازل ويستضىء برأيه في ظلم المعارك وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الراي حازماً في اموره فكانت كلتيهما واحدة ورايهما متفقاً الى ان دخل بينهما الوشاة فافسدوا ما بينهما فتغيرت قلوبهما وتبدل الامر بينهما حتى افضى بهما الحال الى المقاتلة فانزل كل منهما بطائفة من الحيش وتقاتلا مدة مديدة فغلب الشيخ على اخيه ابي العباس ونزع خاتم الملك من يده واستولى على جميع ما كان بيده من الذخائر والعدد وقبض عليه فسجنه هو واولاده بمراكش فكان يجري عليه الجرايات العظيمة ويعامله باحسن المعاملة وكان ذلك سنة ست واربعين وتسعمائة فلم يزل ابو العباس في حكم الثقف الى ان قتلت الاتراك بالسوس الاقصى اخاه محمداً الشيخ المذكور كما سيأتي في اواخر ذي الحجة من عام اربعة وستين وتسعمائة فبلغ خبر مقتله خليفته بمراكش القايد علي بن ابي بكر ازيكى فاسرع بقتل ابي العباس واولاده ذكوراً واناثاً وصيةً جميعاً خشية ان يخرجوه اهل مراكش من السجن فيباعوه وكان ابن مخدومه ابو محمد عبد الله الغالب غائباً بفاس خليفة ابيه بها وولي عهده من بعده كما ياتي ان شا الله مستوفى وذكر بعضهم ان الشيخ العارف بالله الولي الشهير سيدي ابا عمرو القسطلي الاندلسي المراكشي دخل ذات مرة على السلطان ابي العباس الاعرج قبل ان يتنزع الملك من يده فاغلظ له الشيخ في القول وواجهه بما يكرهه فلما خرج من عنده لأمه بعض الاقارب وقال له كيف تواجه السلطان بهذا وحذره من وثبات الملوك فقال له الشيخ ابو عمرو وكيف اخاف من المذبح والله اني لارى الذبحة في عنقه من الاذن الى الاذن والله ان لم ادفن جيفته ما دفنها احد فكان الامر كذلك فلما قتل ابو العباس واولاده لم يتجاسر احد على دفنهم حتى دفنهم الشيخ ابو عمرو بمقربة من ضريح الشيخ الامام ابي عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزولي وهي القبة القريبة من ضريح الامام المذكور وتسمى بقبور الاشراف فكانت مدة خلافة ابي العباس اثنتين وعشرين

سنة قاله ابن القاضي وكان بين قتله وقتل اخيه قبله ثلاثة أيام ومن حجّابه
محمّد بن عليّ الأنكرطيّ ومحمّد بن أبي زيد المترازيّ ومن كتّابه سعيد بن عليّ
الحامديّ رحمة الله تعالى عليهم اجمعين والملك والبقاء والدوام لله وحده

ذكر الخبر عن زيدان بن أبي العباس

الأعرج

قال صاحب درّة الحجال اختلف هل بويع لزيدان هذا بعد وفاة ابيه أبي
العبّاس أم لا وقال صاحب زهرة الشماريخ كان ولده زيدان بسجلماسة فبويع
بها فلم يتمّ له الامر وتوفّي سنة ستين وتسعمائة

ذكر الخبر عن أوليّة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ

ابن امير المؤمنين أبي عبد الله القايم بأمر الله

كانت ولادته رحمه الله سنة ثلاث وتسعين وثمانماية ويلقب بأمغار ومعناه
بلغة البربر الشيخ ويلقب من الالقاب السلطانية بالمهديّ لقبه غير واحد من
الائمة به ونشأ رحمه الله في عفاف وصيانة وعنا بالعلم في صغره وتعلّق بأهله فاخذ
عن جماعة من الشيوخ وبلغ في العلم درجة الرسوخ حتّى كان يخالف القضاة
في الاحكام ويردّ عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه وقع له ذلك مراراً وله
حواشي على التفسير وذلك ممّا يدلّ على غزارة علمه قال في المنتقى كان اديباً
متفناً حافظاً حدّثني شيخنا أبو راشد أنّه كان ممتع المجالسة والمذاكرة فقيّ
الشائبة عظيم الهبة ما رايت بعد شيخني أبي الحسن عليّ بن هارون احفظ منه

للمقطعات الشعرية وكثيراً ما كان ينشد من الشعر بيتاً واحداً وهو

الناس كالناس والأيام واحدة والدهر كالدهر والدنيا لمن غلب

وكان حافظاً للقراءان وفهمه جيداً ويحفظ ديوان المتنبي عن ظاهر قلوب خلافاً
لصحيح البخاري ويستحضر ما للناس عليه ويقول في شرح ابن حجر ما
صنف في الاسلام مثله عارفاً بالتفسير وغيره وكان يحض على المشاورة ويقول
لاسيما في حق الملك وينشد قول الشاعر

ومن جهلت نفسه قدره راي غيره منه ما لا يرى

ويقول ينبغي للملك ان يكون طويل الامل فان طول الامل وان كان لا يحسن
من غيره فهو منه صالح لان الرعية تصالح بطول امله وكان يقول من طول
امله اخذ تلمسان وسببة وغيرها . وكان سبب حفظه لديوان المتنبي ما رايته
في الدوحة قال مؤلفها اخبرني الوزير المعظم ابو عبد الله محمد ابن الامير ابي
محمد عبد القادر ابن السلطان ابي عبد الله محمد الشيخ الشريف المذكور قال لما
غدرت قبيلة المنابهة لجدي السلطان المذكور وانجاء الله من غدرتهم عرف
الشيخ ابا محمد بن عمر بذلك فكتب اليه وهو يقول له اين انت من قول ابي
الطيب المتنبي

غاض الوفاء بما تلقاه من احد . واعوز الصدق في الاخبار والقسم

قال فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنبي حتى علق بحفظه كله ولم
يضر به عنه بيت واحد منه . وابن عمر المذكور هو واحد اشياخ السلطان المذكور

وهو عبد الله بن عمر المطغري اخذ عن ابي عبد الله الغوري والوشريسي مؤلف المعيار وغيرها وكان علامة حافظاً توفي ببلاد درعة سنة سبع وعشرين وتسعمائة قاله سيدي احمد بابا في كفاية المحتاج والذي عند صاحب الفوايد انه توفي سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وهو اشبه بالصواب وكان ابن عمرو شديد المحبة للسلطان ابي عبد الله واخيه السلطان ابي العباس الاعرج وتقدم في كلام صاحب الدوحة ان بسبه كانت دعوتهما وقد وفد السلطان ابن عمر لسوس على تلميذه السلطان ابي عبد الله مراراً وقال ابو زيد في الفوايد اخبرني ابو محمد عبد الله بن مبارك الافاوني قال سمعت من القاضي ابي عثمان الهوزالي يقول لما رجع ابن عمر المذكور من وفادته الى درعة وقد ساله فقهاؤها على اهل سوس فقال لهم وجدت فقهاءهم على ضعيف الفتاوي وفقراءهم على كثرة الدعاوي وعامتهم على كثرة المساوي . ومن فوايد ابن عمر المذكور انه سئل عن مد النبي صلى الله عليه وسلم فاجاب بما نصه وعليكم السلام معشر السادات ورحمة الله وبركاته وبعد فقد سالتموني عن مقدار الصاع النبوي فاقول وبالله تعالى التوفيق مبلغ علمنا وآخر نظرنا مع طول بحثنا ان من اراد معرفته تحقيقاً ومعرفة مقدار عيانه فليعد من الجبوب الشعير الوسط انقطع اطراف اربعة وثلاثين الف حبة وستماية حبة وحبة واحدة وثلاثة اخماس الحبة لان الرطل مائة ومثمانية وعشرون درهماً بالدرهم السنّي والدرهم السنّي خمسون وخمسا حبة ضعف ما في المد اربع مرّات تكن الجملة ما ذكرنا في الصاع آنفاً واما الجاني هذا العمل اتي لما جئت من فاس المحروسة بالمد والصاع وبنصفه لقيت شيخنا الفقيه الجليل ابا علي الحسن بن عثمان بن عبد الله التاملي فقال هل اتيتا من فاس بصاع النبي صلى الله عليه وسلم وبمده فقلت قد اتيت بهما فقلت لصاحبي اخرجهما من حوايجنا فلمّا نظر اليهما ضحك كالسهري فقال وربّ الكعبة ما جئت بمده ولا حاعه صلى الله عليه وسلم قد غلطوا فيهما غلطاً متفاحشاً فكانه استكبرهما وكنت

اذاك معتقداً فاساً واهله فقلت اتق الله أيها السيد كيف تنسب الغلط الى مدينة الامام والمسلمين وهذا الطابع فيهما وقد جعلوا العالم النحرير على النجارين فلا يبيعون صاعاً ولا مداً حتى ينزل طابعه فيه بعد امتحانه فقال لي ردّ الى بالك فشان غلطهم انهم اعتمدوا قول الفقهاء في المدّ وزن رطل وثلاث فوزنوها من الاشياء الخفيفة ارايت لو وزنوها من التبن كان اكبر واكبر فظهر لي صحة قوله فرجعت الى طلب التحقيق فاعتمدت فيما ذكرت على ما ذكره ابو راشد القفصي والصاع الذي جئت به من فاس في ملئه ثمانى عشر قبضة وملء هذا اثنتا عشر قبضة فينبهما مقدار الثلث فن اراد الاحتياط فليخرج زكاة الفطر بالاكبر ويعتبر بلوغ النصاب بالاصغر . ومن اشياخ السلطان ابي عبد الله ايضاً الامام الشهير الصدر الكبير شيخ الجماعة بالصنع السوسي ابو عليّ الحسن بن عثمان التامليّ وذكره في المنتقى وكان عالماً علامة حافظاً متابداً على التعليم مجانباً للمراحة كثير السهر والتدريس والعبادة وكان اذا غلبه النوم يضع راسه على حجر لتوقظه قسوة الحجر ولا يستغرق النوم ويطول في مجلس تدريسه حتى كان يقرأ في المجلس الواحد اربع عشر دولة وكان حافظاً لتوضيح خليل لكثرة ملازمته في النسخ والتدريس يقال انه نسخ اربعة عشر مرة وكان حين كونه بفاس يتعشّ بنسخه ونسخ الرسالة قال المنجور في فهرسته حدثني بذلك كلاً ابن اخيه الثقة المشارك النقيب الحير الناصح الصالح ابو الحسن عليّ بن سليمان بن عبد الله بن عثمان اعانه الله على ما هو بصدد من الاخذ بايدي المسلمين . وكان ابو عليّ رحل لفاس فاقام بها مدّة واخذ بها عن جماعة كالامام الوتريسيّ مؤلف المعيار والامام ابن غازي وغيرهما ثم رجع لبلده سوس ولما خرج من فاس شيّعه شيخه الوتريسيّ وذكر في المنتقى قال حدثني ابو راشد انه لما اكل على ابن غازي قراءته واراد الرجوع الى وطنه فجاء للشيخ ليودّعه فاخذ الشيخ ابن غازي بيده اليمنى وقال له استودع الله دينك وامانتك وخواتم عملك ثم قال الشيخ ابن غازي بعد ذلك الان اجزأت فاس اي

ولدت الاناث ومنه على تاويل وجعلوا له من عباده جزءاً اي انثاً . ولاهل سوس
اعتناء عظيم بفتاويه رحمه الله وقد اغتني باباحة كل ما صيد بالرصاص وخالفه
بعض اهل عصره حسبما في نوازل ابي مهدي الشجستاني ومن بعض اجوبته
ما نصه اجاس المسجد تزكى على ملك المحبس فان حبس واحد ما فيه
النصاب زكى والا فلا سواء حبس على مصالح المسجد او العلم لقولهم فالمعتبر
الجملة اي جملة ما حبس واحد لاجلة اجاس المسجد واما ما اشترى بالغلات
فلا يزكى فانها لم تكن ملكاً للمحبس والمسجد غير مكلف والمحسسون اموات
غير مكلفين وبقي النظر فيما اذا كان المحبس حياً . وفوايده رحمه الله كثيرة توفي
سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ومن اشياخ السلطان ابي عبد الله ايضاً الامام
العلامة المحقق ابو عبد الله محمد بن احمد اليستثي اخذ عنه علوماً منها التفسير
قال المنجور وكنت انا قاريه بين يدي امير المؤمنين العالم العابد المقدس المجاهد
ابي عبد الله المذكور وكان شديد المحبة له قال المنجور ولما توفي الشيخ وذهبت
مع ولده صبيحة تلك الليلة التي توفي فيها لتخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرأ ورده
بجامع المريني فخرج السلطان الينا وهو يبكي بصوت عالٍ فيجمع من سمعه حتى
راينا فيه العجب وما سكت الا بعد مدة لما كان يعلم منه من صحة الدين ومثانته
والنصح لخاصة المسلمين وعامةهم وحضر جنازته توفي رحمه الله عام تسعة
وخسين وتسعمائة وللسلطان رحمه الله عدة اشياخ وفيما ذكرناه كفاية والله
ولي التوفيق

ذكر الخبر عن بيعة السلطان ابي عبد الله

محمد الشيخ وتمهيد البلاد

قال في شرح درة السلوك كانت بيعة ابي عبد الله المهدي بمراكش سنة احدى
وخمسين وتسعمائة فاستولى على البلاد التي كانت بيده وبيد اخيه ابي العباس

المخلوع من اقليم تادلا الى وادي نول ثم تحركت فيه الهمة السطانية والشهامة الهاشمية وطمح بصره الى الزيادة في مملكته وسما الى الوغول في مداين المغرب وقراء فتوجه الى مقاتلة بقايا بني مرين ونكث ما بينه وبينهم من الصلح المتقدم فرموا منه بداهية دهايا ووقعت عليهم منه صاعقة صماء وصار يستسلمون من ملكهم وما بأيديهم بما اتاح الله من النصر الى ان استولى على ما بأيديهم وأول ما ملك من مداين المغرب مدينة مكناسة افتتحها سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار ومقاتلة قال صاحب الدوحة ولنا تغلب على مكناسة والح بالمطالبة لاهل فاس جاءه الشيخ ابو الرواين وقال له اشتر مني مدينة فاس بخمسمائة دينار فقال السلطان ما ازل الله بهذا من سلطان هذا شيء لم تات به الشريعة فقال والله لادخلتها هذه السنة فبقى اشهرأ والامر لايزيد عليه الا تعصاً فقام الامير ابو محمد عبد القادر وقال لابيه يا ابت افعل ما قال لك الشيخ ابو الرواين فانه رجل مبارك من اولياء الله تعالى وما زال به كذلك حتى اذن له في الكلام معه فكلّمه الامير عبد القادر فقال له ادفع المال فدفعه له فقال له عند تمام السنة ان شاء الله يقضى الله الحاجة وامري بامر مباحته ثم ان الشيخ ابا الرواين فرق المال من يومه على الضعفاء والمساكين ولم يمك لنفسه منه حبة واحدة ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور في الظهور الى ان تمت السنة فدخل فاساً كما قال . قال صاحب ممتع الاسماع والشيخ ابو الرواين هذا كان احد الاسباب في تمكين السلطان المذكور من الملك واخراج بني مرين منه فانه لما رأى مرج الناس وهيجان النصارى دمرهم الله على بلاد الاسلام جعل ينادى يا حيران جئ فاني اعطيتك الغرب والحران هو احد اولاد السلطان صاحب الترجمة وهو اكبر اولاده حسبما يأتي ذكرهم وهو كان يتقدم للحروب ولم يفتح والد من البلاد الا ما فتح له على يديه ثم ان الشيخ ابا الرواين بعد ان قال ما قال رأى بعض الاكابر الاشياخ من اهل وقته وضع يده على بني مرين قيل هو الشيخ ابو عمرو عبد الواحد الزعري وقيل هو الشيخ ابو العباس احمد بن الشاهد انصاحي احد اولاد مصباح سلالة الاولياء ركب بغلة

وذهب اليه فلما بلغ داره وجد يبابها ولداً له فقال له يا عمّ ابا الرواين اعطني هذه البغلة فقال له هي لك فنزل عنها ومكّنه منها فدخل الى والده الشيخ واعلمه بذلك فخرج الشيخ وقال له بعد السلام عليه ما ثمن تلك البغلة فقال له ان ترفع يدك عن هؤلاء الناس بنى مرين فقال له قد رفعتها ومثل هذا تقدّم عن الشيخ ابي محمد عبد الله الغزواني وذكر ايضاً عن ابي الحسن عليّ الصهاجيّ انه كان يوماً ينادي بقطرة الصباغين بفاس اخرجوا يا بنى مرين والله ما نترككم ببلدنا ابداً وكان دخول السلطان ابي عبد الله محمد الشيخ المهديّ لمدينة فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة قال ابن القاضي في شرح درّة السلوك ويوافقه في التاريخ لما دخل مدينة فاس من القول بلدة سرك بحساب الجمل . ولما تملك مدينة فاس وحلّ بها والقي في دار ملكها عصا التسيار طمحت به الهمة العالية الى تلمسان فانصرف اليها بجموع عديدة فللكها ونفى عنها الاثراك وانتشر حكمه في اعمالها ونواحيها الى وادي شلف وكان دخوله لتلمسان يوم الاثنين الثالث والعشرين من جادى الاولى عام سبعة بموحدة وخمسين وتسعمائة ثم رجع الى فاس وقد اتّسعت له مملكة المغرب ودانت له البلاد كلّها واشتغل بترتيب ديوان الملك وتحسين شارة السلطنة وضبط امور الخدم والعبيد ويقال انه لما دخل مدينة فاس وعليه وعلى اصحابه المدرعات الصفر وسمة البداوة لايحة عليهم حملوا انفسهم على السّادّ باداب الحضرة والتخلّق باخلاق المدينة وذكر ان ملك الاشراف انما تآتى على يد رجل وامرأة الرجل قاسم الزرهونيّ فانه عمل للسلطان محمد الشيخ هيئة السلاطين في ملابسهم ودخولهم وخروجهم وجلبوسهم واداب اصحابه وكيفية منواهم بين يديه والمرأة العريفة بنت نجو فآتها عملت سيرة الملك في داره وحالته في الطعام واللباس وعاداته مع النساء وغير ذلك فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوةً وزاد في عيون الناس العامة حلاوةً بسبب جريانه على العوايد الحضريّة فلم يزل ابو عبد الله يدور على مدن المغرب ويعطيل الاقامة بفاس الى ان ورد عليه ابو حشّون من تلمسان واخرجه من فاس والله غالب على امره

ذكر اخبر عن دخول ابي حسون المريني مدينة فاس

واخراجه ابا عبد الله محمداً الشيخ منها

كان ابو حسون المعروف بالباضي ابن الشيخ محمد بن ابي زكري المريني
الوطاسي حين اخراجه ابو عبد الله الشيخ من دار ملكه فاس وتملكها كما
ذكرنا قبل مستوفى مرّ متوجّهاً الى الجزائر حقاً لدمه وطلب الاغاثة ولم يزل
عند ترك الجزائر يقتل لهم في الغارب والسنام ويحسن لهم بلاد المغرب
ويعظمها في اعينهم ويقول لهم ان ملكها اليوم استلني ملكي وملك ابائي وغلبي
تراث اجدادي فلو ذهبتم معي الى قتاله عسى الله ان يشيخ بنا النصر عليه
ويرزقنا الظفر به والغلبة عليه ولا تعدمون اتم مع ذلك منفعة من ملء ايديكم
غنائم وذخاير وواعدهم بمال جزيل فاقبلوا معه في جيش حفيل وباشتهم صالح
التركاني الى ان دخلوا مدينة فاس وخرج ابو عبد الله محمد الشيخ هارباً بعد
حروب عظيمة ومعارك شديدة وكان دخول ابي حسون لفاس ثالث صفر سنة
احدى وستين وتسعمائة ولما دخل فاساً فرح به اهلها فرحاً شديداً وترجل
هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيراً وصغيراً وشريفاً ومشروفاً وهو يبكي
على ما دهمه واهل بيته من فتن الاشراف واستبشر الناس بقدومه وتيمنوا
بطلعه ولم يلبث ابو حسون الا يسيراً فكثر شكايه الناس له بالانراك وانهم
مدّوا ايديهم للحريم وعتوا في البلاد فبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال
لهم واخرجهم من فاس وتحالف منهم نفر يسير ثم ان ابا عبد الله محمداً الشيخ
المهديّ لما وصل لمراكش بعد الكاينة عليه صرف همته لاستئجار القبائل وتعبية
الاجناد وابقاء الابطال فاجتمع له من الحيوش ما تقوى به عضده فتوجه به الى
فاس فخرج ابو حسون في رماة فاس وما انضاف اليه من جيش المغرب فكانت

الوقعة على ابي حسن فتحص بفاس وحوصر فيها فلم يزل ابو عبد الله محمد الشيخ محاصراً له الى ان قتل ابو حسن وكانت الوقعة بينهما بموضع يقال له مسلمة ودخل السلطان ابو عبد الله مدينة فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستين وتسعمائة هكذا ذكره بعضهم والذي عند صاحب الدوحة ان دخول ابي حسن لفاس كان في المحرم من سنة ستين وتسعمائة وان رجوع السلطان ابي عبد الله ودخوله لفاس كان في ذي القعدة سنة ستين وتسعمائة وابو حسن المذكور هو علي بن محمد بن ابي زكري الوطاسي وكان يبيع بفاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ثم قبض عليه ولد اخيه احمد بن محمد وخلعه واشهد عليه بخلعه وببيع احمد بن محمد يوم خلع محمد ابي حسن اخر ذي الحجة من السنة المذكورة قال ابن القاضي وقد رايت البيعة التي كتبت له بخط الامام عبد الواحد الوئشريسي من انشائه وعليها خطوط جماعة من فقهاء فاس كابي العباس الحباك والفقير المواسي وغيرهما . وانظر ما وجه كتب البيعة لاحمد مع ان خلع ابي حسن لا موجب له والوئشريسي من اهل الورع كما ستراه عن قريب ولعله الامر لم يظهر لنا ولم يزل السلطان احمد متمادياً على الملك الى ان اسره السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ ودخل فاساً وفر ابو حسن للجزائر وقبض السلطان ابو عبد الله على الوطاسيين وبعث بهم مصفدين لمراكش ثم غدر بهم فيما قيل بعد ان اظهر العفة عنهم وسرح السلطان احمد من وثاقه والله غالب على امره وفي دخلة السلطان ابي عبد الله الثانية امر بقتل الفقيه النصارح قاضي الجماعة بفاس ابي محمد عبد الوهاب ابن محمد الزقاق لانه اتهمه بالليل الى ابي حسن ويحكى انه لما مثل بين يديه قال له اختر باي شيء تموت فقال له الفقيه اختر انت لنفسك فان المرء مقتول بما قتل به فقال لهم السلطان اقطعوا راسه بشاقور فكان من قدر الله سبحانه ان السلطان قتل به ايضاً كما سيأتي بعد ذلك من صدق فراسة الفقيه ابي محمد وكان ابو محمد هذا فقيهاً مشاركاً ووقعت بينه وبين معاصره الامام اليماني تسارعة

في مسألة خلف الوعيد من الله فرعم ابو محمد أنه يصح من الله خلف الوعيد وخلفه اليستى والّف كلّ منهما في المسئلة والصواب مع اليستى وكان قل ابي محمد في ذي القعدة من عام احد وستين وتسعمائة وفي هذه الدخلة ايضاً امر بقتل خطيب مكناسة الزيتون صانها الله الشيخ الفقيه ابي الحسن على حرزوز المكناسى لكلام بلغه عنه وأنه كان يذكره في خطبته يحذر الناس من اتباعه والانتقاد له ويقول في خطبته جاءكم من سوس الاقصى البعاد واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبش المهاد وكلام اخر لم اتحقق لفظه فقتله رحمه الله في ذي القعدة من السنة المذكورة وذكر في الدوحة ان سيدي ابا الرواين بعث الى ابي الحسن حرزوز وهو يقول له اشتر نفسك مني فلم يكثر بكلامه فقال ابو الرواين للرسول ارجع اليه وقل له أنه سيقتل ذبيحاً هو وولده ويعلقان على باب دارها في القرب فبلغ ذلك الفقيه ابا الحسن حرزوز فذهب مسرعاً حتى اتي الشيخ ابا الرواين فقال له يا سيدي ما هذا الذي تقول فقال هفوة صدرت ومشية سبقت فقال له يا سيدي نفعل كلّ ما تقول فقال له ما يكون الا ما كان ثم تراخي الامر مدة من ثلاثة اشهر فكان الامر كما قال . ويحكى شائعاً ان ولد ابي الحسن حرزوز كان يوماً جالساً بباب داره وكان في الطريق طين فمرّ ابو الرواين وعليه ثياب رقيقة كأنه ذاهب لصلاة الجمعة فقال ولد ابي الحسن ان كنت تحبّ الله فتمرّغ في هذا الطين لما قدّم له الله قال فجعل الشيخ يتمرّغ في الطين ثم قام فقال له اقنعت قال نعم فقال له هكذا تتمرّغ انت وابوك في الحديد وكان كما قال . وقد قتل السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ المهدى ايضاً قبل دخلته الاولى لفاس الفقيه الامام المفتى الخطيب ابا محمد عبد الواحد ابن العلامة الامام ابي العباس احمد الوثريسى وذلك أنه لما اُحِلَّ بالمطالبة لاختد فاس وصعب عليه امرها قيل له لا سبيل لك اليها ولا يبايعك اهلها الا اذا بايعك ابن الوثريسى فبعث اليه ورغبه فقال له

بيعة هذا السلطان يعنى ابا العباس احمد بن محمد الوطاسى فى رقبتي ولا يحل
لي حل رقبتي الا بموجب شرعى وهو غير موجود فلما امتنع ابن الوشريسى
من الاجابة امر السلطان محمد الشيخ جماعة من المتلصين ان ياتوا به من
فاس ويخرجوه بظاهرها فاتوه وراودوه ان يذهب معهم فلما امتنع من الذهاب
معهم قتلوه وذكر ان السلطان ابا عبد الله محمد الشيخ كتب لاهل فاس وهو
يقول لهم ان دخلت فاساً صلحاً ملاتها عدلاً وان دخلتها عنوةً ملاتها قتلاً
فاجابه ابن الوشريسى بآيات اغلظ له فيها وأولها

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا ولاخصك المولى بفضل ولا اولى
وما انت الا مسرف ومعاذ تمثل للجتهال بالسمة المثلى

فحقق ذلك عليه السلطان وامر بقتله وحكى انه كان يقرأ صحيح البخاري بين
العشاءين بجامع القرويين وينقل عنه كلام ابن حجر فتح الباري عليه
ويستوفيه لانه شرط المحبس فقال له ابنه يا ابي سمعت ان اللصوص
ارادوا الفتك بك الليلة في مجلسك فلو تأخرت عن القراءة الليلة فقال له اين
وقفنا من القراءة في البخاري فقال له ولده على كتاب القدر فقال له كيف نفر
من القدر اذا انطلق بنا الى الميعاد فلما افترق المجلس خرج الشيخ من باب
الشماعين احد ابواب المسجد المذكور فضرب احدهم يده فقطعها ثم جهزوا عليه
رحمه الله هنالك بالباب المذكور في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وتسعمائة قال
المنجور في فهرسته واشتهر عن الفقيه الصالح ابي عبد الله محمد بن ابراهيم المدعو
بابي شامة انه رأى هذا الشيخ في المنام بعد مقتله فسأله عن حاله وما فعل الله به
فانشأ يقول

لقد عمى رضوان ربّي وفضله ولم ار الا الخير في وحشة القبر

واتي لاسال الالاء بفضله ليحفظني يوم الخروج الى الحشر
وما بعد ذاك من امور عريضة كنشر الكتاب والجواز على الجسر
بجاء النبي الهاشمي محمد واهل والاصحاب ذي الشرف العر

وكان ابو محمد عبد الواحد الوائلي رحمه الله امام وقته غير مدافع صحيح الدين متين الورع مهيباً ذا سمة حسن وحال مستحسن فصيح العبارة متقدماً على اهل عصره في صناعة الانشاء وعقد الشروط والوثائق ولما زوجه والده الامام الكبير مؤلف الميعار وهو شاب واعرس اطلق الفقيه القاضي المفتي ابو عبد الله محمد ابن عبد الله اليفرني المكناسي مؤلف المجالس المكناسية يده على الشهادة وقال لايه هذه هديتي لهذا العرس يعني الشهادة وكانت خطة الشهادة عند هذا القاضي عزيزة ومزية كبيرة حتى كان يقول من خطبها متى فكأنما خطب لي ابتي واحاب في ذلك لان بعض القضاة كان يقول للشهود اتم القضاة ونحن المنفذون فخرج ابو محمد عبد الواحد من الاعراس الى الشهادة بالسماط ثم امتد به الحال الى ان ولي القضاء بفاس مدة من ثمان عشرة سنة ثم تخلّى عنه الى الفتوى بعد موت الشيخ ابن هارون وكان شاعراً مجيداً له ازجال وموشحات مع رقة طبع واهتزاز عند سماع الالحان والة الطرب لاعتدال مزاجه وقوام طبعه قال المنجور من رقة وذكاية انه كان يدرس يوماً فرعى ابن الحاجب بالمسجد المعلق برجة الزبيب فاجتازت من هنالك عمارية مصحوبة بطرب من زمارات وطبال وبوقات فاخرج الشيخ راسه من الطاق فاصنى الى ذلك ثم قال ما تاتي هذا لاصحاب العمارية حتى انفقوا فيه مالاً معتبراً ونحن نسمعه تجاناً كيف لا نفعل ولما توفي ابوه قيل انه لا يحسن درس ابيه فجلس على كرسي ابيه بالمدرسة المصباحية لتدريس المدونة وحشر الناس يختبرون وحضر الامام ابن غازي فاجاد كما ينبغي فاعجب ابن غازي وقبله بين عينيه وقال لو لم تحسن الدرس لقمتم مقامك حتى تحسنه

وتأخذ مرتب ابيك لما كان بين ابن غازي وبين والده من الصداقة وكان يحضر مجلسه اعيان الطلبة كالشيخ ابي محمد المساري صاحب حاشية المكودي والزقاق وغيرها ونظم ايضاً ايضاح المناسك لابييه وزاد عليه وشرحه ومن شعره قوله في تاريخ قطرة الرصيف

فخر السلاطين من ابناء وطاس	جسر الرصيف ابو العباس جدّه
لمن يمرّ به من عدوتي فاس	فجاء في غاية الاتقان مرتفعاً
من هجرة المصطفى المبعوث للناس	وكان تاريخه في نصف عام غني

وكان الوطاسي السلطان المذكور واقفاً عند اشارة ابي محمد الونشريسي لا يتعدى رايه ولا يخالف امره كما وقع له معه في رجل اسلامي يعرف بعبد الرحمن المنجور وكان تاجراً جماعاً للمال شهد عليه في حكاية طويلة اربعون رجلاً من العدول المبرزين باستغراق ذمته فاخذ السلطان وقتله وصير ساير املاكه لبيت مال المسلمين فرغب اولاد المنجور من السلطان ان يودوا عشرين الف دينار ويسقط عنهم بقية الاستغراق ويرد اليهم املاكهم فقال السلطان لحاجبه اذهب الى الشيخ عبد الواحد الونشريسي وشاوره في ذلك وقل له اني في الحاجة الى هذا المال لاجل هذه الحركة فذهب الحاجب واخبره بمقالة السلطان ورغبه في قبول ذلك فقال له الشيخ والله لا اتى بشهادة اربعين رجلاً من عدول المسلمين لاجل سلطتك اذهب اليه وقل له اني لا اوافق على ذلك ولا ارضاه فرجع الحاجب للسلطان واخبره بما قال الشيخ فرجع السلطان عما عزم عليه وانظر هذا مع ما جرى معه ايضاً وذلك ان الناس خرجوا يوم العيد للصلاة فانتظروا السلطان فبطئ عليهم ولم يات الى ان خرج وقت الصلاة وحينئذ اقبل السلطان في ابهته فلما وصل للمصلى نظر الونشريسي للوقت فراه قد فات فرقى المنبر وقال يا معشر المساميين عظم الله اجركم في صلاة العيد فقد عادت ظهراً ثم امر المؤذن فاذن واقام

الصلاة وصلى بالناس صلاة الظهر فنجعل السلطان واعترف بخطيئته رحمهم الله
واخبار ابي محمد الوائش ربّي رحمه الله كثيرة وفي هذا القدر الذي ذكرناه
كفاية والله اعلم

ذكر الخبر عن ضخامة دولة السلطان ابي عبد الله

محمد الشيخ المهدي واتساع اياته

لما فتح ابو عبد الله محمد الشيخ المهدي مدينة فاس واستولى عليها اتسعت له
مملكة المغرب من باب تلمسان الى تخوم الصحراء ودانت له الرقاب واجتمعت عليه
الكلمة وكان قد استولى على تلمسان واعمالها الى وادي شلف وكان دخوله
لتلمسان يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى سنة سبع بموحدة وخمسين
وتسعمائة كما تقدم بعد ان اقام محاصراً لها تسعة اشهر ومات في محاصرته ايّاه وولده
هولاي محمد الحرّان ثم تراجعت عليه الترك واخرجوه من تلمسان فانصرف عنها
الى المغرب الى ان عاود المجيء اليها عام سبع وستين لما بلغه قيام اهلها على الترك
رانحصار الترك منهم بقصبتها فاقام مرابطاً عليها ايّاماً ثم رجع ولم يدخلها عليهم
قال ابن القاضى كان رحمه الله ماضى العزيمة قوى الشكيمة عظيم الهية كثير
الحركة ذا همة عالية وشهامة غالية حتى اقعّد قواعد الملك واسّس مبانيه واحيا
مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة وكان ذا سعد وبخت عظيم الرغبة
في الجهاد دابر بيضاء في اسلام فتح حصن النصارى بسوس بعد ان اقام النصارى
فيه اثنتين وسبعين سنة وكان منصوراً بالعرب حتى تركوا اسفى وازمور من غير
قتال ولا ايجاف عليهم واصيلاً . وتقدّم في كلامنا ما يخالف هذا في ترجمة ابي العباس
احمد الاعرج وكان نزول النصارى بازمور سنة اربع عشرة وتسعمائة وفي هذه
السنة بنى النصارى حجر بادس وفي اواخر المحرم منها اخذ النصارى مدينة وهران

ونكب اهلها فما منهم الا اسيراً وقتيلاً الى ان اعادها الله للإسلام على يد الاتراك
في حدود العشرين ومائة والالف والامر لله وحده

ذكر الخبر عن اولاد السلطان ابي عبد الله محمد الشيخ

وتسميتهم وتسمية حجابهم وقضاته

كان رحمه الله له عدة اولاد نجباء انجبتهم مولاي محمد الحران وبه عرف وهو
اكبرهم وهو الذي يتقدم للحروب ولم يفتح لآبيه من البلاد الا ما فتح على يديه
وهو الذي كان ينادي سيدي ابو الرواين ويقول قبل ان يكون للاشراف ذكر
يا حران حياء فاني قد اعطيتك الغرب فلم يفقه الناس قوله الى ان ظهر مولاي
محمد المعروف بالحران هذا ومنهم الوزير ابو محمد عبد القادر توفي سنة تسع بمشاة
وخمسين وتسعمائة وابو محمد عبد الله الغالب بالله وابو مروان عبد الملك الغازي
في سبيل الله وابو العباس احمد المنصور وابو سعيد عثمان وابو السعادة عبد المومن
وابو حفص عمر وغيرهم قال المنجور في فهرسته حضرت يوماً بمجلس مولانا
امير المؤمنين ابي عبد الله محمد الشيخ المهدي وقد حضر عنده اولاده الصناديد
الامراء مولانا محمد الحران ومولانا عبد القادر ومولانا عبد الله فدخل شيخنا
الامام العالم ابو عبد الله اليستني فلما نظر الى بنيه حوالى ابيهم الشد بيتاً من
تلخيص المفتاح

فقلت عسى ان تبصرني كأنما بنى حوالى كالاسود الجئاذر

فاعجب ذلك السلطان واولاده رحمهم الله وأما حجابهم فعلى بن ابي بكر ازيكي
الحاجي وموسى بن ابي جمادة الغمري وغيرهما وأما قضاته فبفاس ابو حسون

على بن احمد الاخصاصى وبمراكش ابو على الحسن بن ابي بكر
السيجستاني

ذكر الخبر عن سيرته ولمع من سياسته

رحمه الله

فكان رحمه الله مولعاً بتدبير امر الرعية مستيقظاً في مسائله حازماً في
اموره غير متوقف في الدماء وهو اول من استخرج الضريبة المسماة على
لسان العامة بالنابية وفرض على الناس المغارم والمطالب وكان لا ينزله عنها احداً
حسبما ذكره ابن عسكر في الدوحة اظنه في ترجمة سيدي خالد المصمودي وانه
رماها حتى على اولاد سيدي خالد المذكور مع ما لا يهيم من الشهرة بالولاية
والصيت المديد في تلك البلاد وحسبك ان كرامة سيدي خالد الباقية الى الان
انه كتب في حجر باصبعه لا اله الا الله فآثر في الحجر وانتقش فيه كما
تقش في شمع وما نزه السلطان عنها اولاده حتى ظهرت له مع ايهم كرامة
ذكرها في الدوحة فراجعها وقد رايت رسالة كتب بها السلطان ابو المعالي
زيدان بن منصور للشيخ ابي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم
الحاجي فكان من فصولها ما صورته ونحن نلخص لكم الكلام اما بعد ما
اورده الناس في الخراج اما ما بنوا عليه فرضه في اول الاسلام والدول
العظام فلا نطيل به واما في المغرب خصوصاً فأول من فرضه عبد المؤمن بن
على وجعله على اقطاع الارض بناءً على ان المغرب فتح عنوةً واليه ذهب
بعض العلماء ومنهم من يقول ان السهل فتح عنوةً والحيال صلحاً فاذا تقرّر
هذا وعلمت ان اهل ذلك العصر قد بادوا واندثروا فبقى السهل كله اراثاً
ليت المال تعين ان يكون الخراج فيه على ما يرضى صاحب الارض وهو

السلطان والجبل تتعذر معرفة ما كان الصلح عليه ولا سبيل الى الوقوف عليه فيرجع فيه الى الاجتهاد وقد اجتهد سلفنا الكرام في فرضه لأول الدولة الشريفة على حسب وفق ائمة السنة ومشايخ اهل العلم والدين في ذلك العهد فجري الامر على السند القويم الى ان هبت عواصف الفتنة لآيام ابن عمنا صاحب الجبل وادالة مولانا الامام وصنوه المرحوم على حواضر المغرب وسهله عند الزحف بالاتراك وامتدت به الفتنة بالجبل الى ان هلك مع النصارى في الغزوة الشهيرة وجاء الله بمولانا الامام المقدس بالجبل العاصم للاسلام من طوفان الالهوال قدر رضى الله عنه الاشياء حق قدرها وراى المغرب غب تلك الفتن قد فغر اغواهاه لالتقامه عدوان عظيمان من الترك وعدو الدين الطاغية فاضطر رحمة الله الى الاستكثار من الاجناد لمقاومة الاعداء والذب عن الدين وحماية ثغور المسلمين فدعى تضاعف الاجناد الى تضاعف العطاء وتضاعف العطاء الى تضاعف الخراج وتضاعف الخراج الى الاجحاف بالرعية والاجحاف بالرعية امر يستكف رضى الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول آيامه فلم يبق له حينئذ الا امعان النظر في اصل الخراج فوجد بين السعر الذي بنى عليه في قيمة الزرع والسمن والكبش الذي تعطى فيه الرعية من زمن الفرض وبين سعر الوقت اضعافاً فحينئذ تحرى رحمة الله العدل فخير الرعية بين دفع كل شئ بوجهه او دفع ما يساوي سعر الوقت فاختروا السعر مخافة ان يطلع الى ما هو أكثر فاسعفهم اليه رضى الله عنه وعرف الناس الحق فلم ينكره احد من اهل الدين ولا من اهل السياسة ليت شعري لو طلبنا نحن الرعية اليوم بسعر الوقت الذي طاع الى اضعاف مضاعفة اليوم ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا ما هو اخف من ذلك والحاصل راجعوا رضى الله عنكم ما عند الامام الماوردي في الاحكام السلطانية في ضرب الخراج فقد استوفى الكلام في ذلك انتهى نص المحتاج اليه من الرسالة وكانت هذه النايبة في زمن السلطان ابي عبد الله تفرض على الكوامين وتوظف على حساب السكّان ويفرض الشئ الخفيف في ذلك

وجرى على ذلك ولده الغالب واخوه بعده السلطان المعتصم ثم اشتد امرها في أيام المنصور وتفاقم الحال بعده وقد وقفت على رسالة كتبها السلطان ابو مروان عبد الملك الغازي المعتصم لاختيه المنصور يا امره بفرض مؤنة محلته على بعض القبائل ومنها تعلم خفة الامر في زمانه ونصها من عبد الله المعتصم بالله المجاهد في سبيل الله امير المؤمنين ابي مروان عبد الملك ابن امير المؤمنين ابي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى ايد الله تعالى امره واعز نصره الى اخينا الاعز الانجب باب احمد ابن مولانا الوالد حرس الله تعالى كريم اخيه سلام كريم ورحمة الله تعالى وبركاته اما بعد فاتنا كتبنا اليكم من محلتنا السعيدة بتامسنا ولا زائد بحمد الله الا الخير والعافية والتم الصافية هذا وانه ساعة وصوله اليكم تخرجوا من الخدام لعمالة مكناسة وازمور واولاد جلّول من يفرض عليهم علف محلتنا المنصورة ومؤنتها وتامرهم بدفعه وابلاغه لمدينة سلا وقدر ذلك صحفة شعير وعشرون مدا قمحا لكل نايبة وصاع من سمن وكبش لاربع نوايب واكد عليهم رعاك الله ان يعتنوا بذلك وبايصاله للمكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الاعلام اليكم والله يرعاكم بتمنه والسلام . ومن هذا المعنى ما يحكى ان ابا عبد الله القايم لما بويغ له بصقع سوس وراى ضعفه وقلة ما بيده مع ان الملك لا يتاى الا مع المال امر اهل السوس بيضة لكل كانون اجتمع من ذلك الاف لاتحصى لان الناس استهانوا امر البيضة فلما اجتمع عنده البيض امرهم ان ياتي كل من اتى بيضة بدرهم ففعلوا فاجتمع عنده مال وافر فاصلح به شانه وقوى به جيشه وهذه اول نايبة فرضت في دولة الاشراف والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

ذكر الخبر عن مآثر السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ

المهدي وما وقع في أيام دولته من الاحداث

قال في المتقى كانت له رحمه الله مآثر حسنة منها بناء جسر نهر سبوا ووادي أم الربيع ، وسياتي في كلامنا في ترجمة المنتصور ما يخالف هذا ومنها أنه أول من اختط مرسى أكدير بالسوس الأقصى سنة سبع بموحدة واربعين وتسعمائة لما اجلى النصارى دمرهم الله من الموضع المعروف بفت على مقربة من أكدير المذكور وكان في اختطاطه رأى مصيب وفراصة تامة وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وقع مطر غزير بمراكش حتى امتلات الينار وتهدمت الديار وصار الناس يؤرخون بعام الينار وفي سنة ثمان وخمسين وتسعمائة كانت حركة مالوا وفي سنة ثمان وخمسين امر بامتحان ارباب الزاويا المتصدرين لامشيخة خوفاً على الملك لانه دخله من بابهم فامتحان جماعة كسيدي عبد الله الكوش فاخلي زاويته بمراكش وامر برحيله لفاس وفي الدوحة في ترجمة أبي علي الحسن بن عيسى المصباحي قال لما امتحن السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ زاويا المغرب قيل لابي علي الاتخشي من هذا السلطان فقال انما الخشية من الله تعالى ومع هذا فالله والقبة لا يقدر احد على نزعهما والباقي امر متروك لمن طابه وكان السلطان يطالب ارباب الزاويا بودايع بني مرين ويطلبهم بذلك وبعث خديمه يوماً لابي عثمان سعيد بن أبي بكر دفين مكناسة يطالبه بذلك فوجده جالساً بناحية من زاويته يضرر الدوم واذا بطائر لعله الالتحاق سلاح امامه فما رفع ابو عثمان بصره حتى سقط الطائر ميتاً متطائر الريش فلما رأى ذلك خديم السلطان قزع وولى لسيده هارباً وفي سنة تسع بمشتاة وخمسين قدم عليه بمراكش العالم العلامة الصالح ابو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطراباضي

نزىل الجزائر سفيراً بينه وبين سلطان الترك ابي الربيع سليمان شاه صاحب
القسطنطينية العظمى يقصد المهادنة بين السلطانين وتحديد البلاد بينهما وفي مقدمة
الخروبي هذه لمراكش انكر على سيدي ابي عمرو القسطلقي قصه لشعر الشارب
وقال انه بدعة فقالوا له ان الشيخ الجزولي كان يفعله فقال لهم لعنه باذن
والاذن لا يعصمكم فان الاذن للنبي صلى الله عليه وسلم يعم اتباعه والاذن للولي
لا يعم اتباعه وانكر عليه مسائل كثيرة وبعث له رسالة ابدع له فيها وهي
شهيرة توفي الخروبي رحمه الله سنة ثلاث وستين وتسعمائة بالجزائر ودفن
خارجها والله سبحانه اعلم

ذكر الخبر عن وفاة السلطان ابي عبد الله

محمد الشيخ المهدي وسبها وكيفيتها

آما تغلب رحمه الله على بلاد المغرب ودانت له حواضره وبواديه تافت
همته العلية الى بلاد المشرق فكان يقول لا بد لي ان اذهب الى مصر واخرج
منها الاتراك من احجارهم وانازلهم من ديارهم فتخوف منه السلطان سليمان
العثماني وكان ابو عبد الله لا يسمى سلطان العثماني الا سلطان الحواتة لان
الغالب على هاولاء الاتراك السفر في السفين فانتهى ذلك للسلطان خان
العثماني فبعث له ارساله فلم يحتفل بهم ابو عبد الله بل قال لهم اخبروا صاحبكم
اني مفتوح عليه بالاده ومتوجه للقايه فلما رجعت الارسال للعثماني واخبروه
بمقالة ابي عبد الله وما واجههم به بعث لترك الجزائر ان يانوّه براس ابي عبد الله
فبعثوا رجلاً من ابطالهم يقال له صالح الكاحية في شردمة قليلة من اجنادهم
مظهريّن له انهم هربوا من العثماني ورغبوا في خدمته والتحصن به من طلبهم
ونيتهم المكيدة والاغتيال حيث امكنهم الحال فلما قدموا على السلطان ابي عبد

الله فرح بهم غاية واظهر السرور بقدمهم عليه وكان ابو عبد الله لما دخل مدينة قاس في المرة الثانية وجد جماعة من الاتراك تخلفوا عن الجيش الذي قدم به ابو حسون المريخي الوطاسي من الجزائر كما تقدم ضمهم اليه وجعلهم على حدة في جيشه وسماهم الانكشارية وقدم الى مراكش وكان ابو عبد الله لما يركب يقربهم ويدنهم منه ويامن فيهم وما علم ان الترك كما قال الشاعر

لا تامنن تركياً فيما يقول ولو من العباد حتى طار في السحب
ان لك جاد فذاك الجود من غلط وان تمرّد عن أم له وأب

ولما قدم صالح الكاهية فرحوا به وجنحوا له اذ كل غريب للغريب نسيب ان الغريب يعجب الغريب فلم يزل مع اصحابه ينظرون في المكيدة ويتربصون الدوائر بالسلطان ابي عبد الله الى ان امكنتهم الفرصة منه وهو بحركته بجبال درن بموضع يقال له اكلاكل فدخلوا عليه خباءه على حين غفلة من العسس فضربوه بشاقور ضربة واحدة ابانوا بها راسه عن جسده واحتملوه في محلاة وذهبوا به يخوضون في احشاء الظلماء واستمطوا مطية الخوف والغنى وخرجوا عامدين الى جهة سجلماسة كانتهم ارسال الى تلمسان لئلا يفتن بهم احد فادركوا في بعض المواضع فقتلت منهم طائفة حتى هلكوا وهرب بعضهم بالراس الى ان بلغوه للسلطان بالقسطنطينية فلم يزل معلقاً بها الى ان تلاشا وقتل معه في تلك الليلة الفقيه ابو الحسن علي بن ابي بكر السجستاني والكاتب ابو عمران الوجاني وحكي صاحب ممتع الاسماع ان سيدي احمد الشريف زيل بن سلمان من جبل لمطة وكان صاحب حال وله قدم راسخ في الطريق وقعت له وحشة في باطنه بينه وبين سلطان الوقت يعني ابا عبد الله ادّى ذلك الى ان صرف همته الى اهلاكه فدخل عليه في الغيب ليوقع به بشاقور في يده او ورد عليه بذلك واراد ازعاجه فاذا بسيدي سعيد بن ابي بكر دفن مكناسة قايم على راس

السلطان المذكور ويده على راسه كالحافظ له فقال له كالمكر عليه الى هنا اذهب فما لك الى ذلك من سبيل فرجع قال في الممتع وهكذا اتفق في الخارج فان الترك قطعوا راس السلطان بشاقور الا ان الوقت كان متاخراً وحال سيدي احمد المذكور حال صحيح انظر تمام كلامه وكان قتل السلطان ابي عبد الله رحمه الله تعالى يوم الاربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة عام اربعة وستين وتسعمائة وحمل الى مراکش بغير راس فدفن قبله جامع المنصور في قبور الاشراف هنالك وقبره شهير ومما نقش على رخامة قبره

حتى ضريحاً تغمدته رحمت	وظلّت لحده منها غمامات
واستنشقت نفحة التقديس منه فقد	هبت من الخلد لي منها نسيات
لموته كدّرت شمس الهدى فكست	من اجله السبعة الارضين ظلمات
يا مهجة غالها غول الردى فقضى	واثبتت سهمها فيها المنيات
دكت لموتك اطواد العلا ضغنا	وارتج من نعيك السبع السماوات
وشيعت نعشك المزجي الى عدن	من الملائك الحان واصوات
كان الثريا صعاداً تعليه وقد	اصبحت تحت الثرى تعلوك درات
يا رحمة الله عاطيه سلاف رضى	تدور منها عليه الدهر كاسات
قضى فوافق في التاريخ منه جلى	دار امام الهدى المهدي جنات

وتقدم ذكر من قتل معه وقتل اخيه ابي العباس الاعرج في السجن بعده
بثلاثة ايام رحم الله الجميع بمنه وكرمه

ذكر أخبر عن دولة السلطان أبي محمد مولانا عبد الله

ابن السلطان أبي عبد الله مولانا محمد الشيخ الشريف

صفته كان رحمه الله تعالى ادعج العينين مستدير الوجه متسعة اسيل الحدين
متشرف الوجه ربة للقصر وكانت ولادته بتارودانت بعد العشرين من التسعمائة
ويلقب من الالقاب السلطانية بالغالب بالله تعالى لقبه بذلك غير واحد من الائمة
وانشا في عفاف وصيانة وضبط احواله وحفظ الفراء ان العظيم واخذ بطرف صالح
من العلم وكان ولي عهد ابيه ولما وافته الانباء بمقتل ابيه بايعه اهل فاس ولم
تتخلف عن بيعته منهم احد وذكر شارح زهرة الشماريخ ان الفقيه الميقاتي
المعدّل بمنار القرويين ابا عبد الله المزوار كان بصيراً بعلم الازياج والحدثان بينما
هو ليلة يراقب الطالع والغارب وقد ابهر الليل واسودّ ديجوره راي نجم
السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ قد سقط وكانت بينه وبين مولانا عبد الله معرفة
وخلطة فاسرع في الذهاب اليه ليخبره بما راي فلما بلغ باب فاس الجديد وجده مغلقاً
فاستاذن الموكّلين به في افتتاحه فامتنعوا فقال لهم اني جئت للخليفة في امر مهم
عنده وان لم تعلموه بمكاني الساعة لحقكم منه غداً ما تكرهونه فانذروا الخليفة به
فيحمل اليه وساله فاخبره منها بما راي ونعى اليه اياه فلم يكذب في ذلك واستعدّ
وتهيأ فلم تمض الا اياماً قليلا فوافقته الاخبار بمقتل ابيه في تلك الساعة التي قال
له فيها الفقيه المعدّل فوجدته على اهبة واستعداد ولما بلغ اهل مراكش مبايعة
اهل فاس اياه وافقوا عليها فاستوثق له الامر وتمهد له ملك ابيه وكان ذلك كله
في المحرم من سنة خمس وستين وتسعمائة

ذكر الخبر عن سيرته وثناء الناس عليه

وما قيل في ذلك كله

كان السلطان ابو محمد عبد الله الغالب بالله ذا سياسة وخبرة بالملك ولين عريكة ولما استبد بالخلافة الان الجانب وخفض الجناح وسار سيرة حسنة حتى صلحت الرعية وازدانت الدنيا وانتعش الناس حتى كان يقال ثلاث عيinat هم عيون الزمان مولاي عبد الله وسيدى عبد الله بن حسين الشريف وسيدى عياد السوسى ورايت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامع الاعظم بتارودانت ابو زيد عبد الرحمن التلمساني الى قاضى الجماعة الفقيه ابي مهدي سيدى عيسى بن عبد الرحمن السجستاني وهو يقول ولاشك ان مولانا عبد الله مجمع على عدالته وبيعته وقد اخبرني الثقة من اصحاب الشيخ الجامع القطب الكبير ابي العباس سيدى احمد بن موسى السملالي عنه انه قال مولانا عبد الله ياقوتة الاشراف هو صالح لا سلطان وقد قال لي الفقيه سيدى عبد الرحمن بن عمر البوعقيلى سال فلان سيدى احمد ابن موسى عن القطب فقال له انا فقال له ومن بعدك قال فلان قال ومن بعده فقال له مولاي عبد الله فقال له ومن بعده فقال له كفاك ولم يحبه وناهيك شهادة الشيخ له بما ذكر وقد اشتهر عند الناس من الخاص والعام ان مولانا عبد الله كان سلطاناً عدلاً ورجلاً صالحاً واستفاض ذلك ثم رايت في الرسالة التى كتب ابن اخيه السلطان ابو المعالي زيدان بن احمد المنصور لابي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي ما يخالف ذلك ويؤذن انه كغيره من الملوك وذلك ان ابا المعالي انكر على ابي زكرياء تعرضه لامور السلطنة وانكاره على الملوك ودخوله في ذلك وان ذلك فضول منه لان الصحابة رضى الله عنهم كانوا في زمن اليزيد بن معاوية وما تصدى احد منهم لسعزله وما قام به

ولا شغل نفسه بذلك لأن السلطان لا ينزل بالفسق والجور الى ان قال له مانصه واعلم ايضاً انّ والدك افضل منك بدليل اباؤكم افضل من ابناءكم الى يوم القيامة وكان عمنا مولانا عبد الملك رضى الله عنه سمح له على ما كان عليه واشتهر عياناً وكان والدك في زمنه ودولته وبيعته ووفد عليه ولم يستكف من ذلك ولا يظهر منه ما يخالف السلطنة ولا انكر عليه ولا عرض بما يسوء ملوك الوقت ولا سمع ذلك منه فان كان راضياً بفعله فهو مثله وان لم يرضه فما وجه سكوته والوفادة عليه وقد تحققت وعلمت انّ ولاية احمد بن موسى كادت تكون قطعية وقد اشتهر امره عند الخاصّ والعامّ حتّى اطبق اهل المغرب على ولايته وقد كان على عهد مولانا عبد الله برّد الله ضريحه وكان الوليّ المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه وما برح الشيخ المذكور يدعوه بالبقاء ولدولته بالدوام ويظهر حبّه وكان المولى المذكور يعزل ويوتّي ويقتل وكان شرد منه لزاويته المرابط الاندلسيّ وولد ازيك وامثالهما وكان يقدم للشفاعاة ويشفع ولا يتعقب ولا يعتب ولا يبحث عمّا وراء ذلك باق على عهده ومودّته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسدّ داره فسدّها وما فتحها حتّى امره ولا استعظم احد ذلك ولا اكثر فيه ولا جعله سبّة لفتح باب الفتنة وكان قواد المولى المذكور مثل وزيره ابن شقرة وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن موسى العليج والهبطيّ والزرهوتيّ وعبد الصادق بن ملوك وغيرهم تمنّ لا يحضرنى ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمر واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من الات الذهب والفضة وكان في عصره احمد بن موسى المذكور وابن حسين والشرقيّ وابوعمر والقسطليّ وتحمد بن ابراهيم التمارقي والشطيبيّ وغير هؤلاء من المشايخ واهل الدين الذين لا يسع من يدعى هذه الطريقة التقدّم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فاحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح في ولادة الامر وقادة الاجناد تمنّ الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع في تدبيره اليهم ومثل من ذكر من الاولياء كان علامة الزمان وواحد وقته شيخ مشايخ افريقية وبعض اهل المغرب عبد العزيز القسطينيّ

الشيخ المتكلم في الصوفية صاحب الايات السينات قد كان من سكان تونس وكان ملوك تونس وما انضاف اليها من الفساد الذي لا ينحصر واشتهر امرهم حتى عرفوا به في المشارق والمغرب ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولا تصدى لتغيير المنكر والامر بالمعروف حتى قبضه الله اليه انتهى محل الحاجة من هذه الرسالة المذكورة فمقتضى كلام ابي المعالي هذا خلاف ما استفاض الان وشاع عن الرجل وقول احمد بن موسى الجزولي المذكور ووصفه له بالقطبانية لعله اراد قطبانية الملك فقد رايت في كتاب قوت القلوب لابي طالب المكي رحمه الله ما نصّه وقال ابو محمد سهل بن عبد الله التستري رحمه الله الخليفة اذا كان غير صالح فهو من الابدال واذا كان صالحاً فهو القطب الذي تدور عليه الدنيا قال ابوطالب قوله من الابدال يعني ابدال الملك وقريب من هذا ما رايت ايضا في اخر كتاب المتقى المقصور لابن القاضي واما السلطان اما ان يكون ولياً او قطباً واحسن من هذا كله ما رايت في قواعد الشيخ زروق ان الامام احمد بن حنبل كان يقول السلطان اذا كان صالحاً فهو خير من صالحى الامة واذا كان فاسقاً فصالح الامة خير منه وهو قول عدل وحكى صاحب المتع ان السلطان مولاي عبد الله رحمه الله تعالى ذهب لزيارة الشيخ احمد بن موسى الجزولي المذكور وساله تمهيد الملك له من غير طعن ولا ضرب واعتذر بأنه لا يمكنه العيش بدونه ولا يامن على نفسه ولا تاويه ارض ان تخلّى عنه فقال الشيخ يا عرب يا بربر يا سهل يا جبل اطيعوا السلطان ابا عبد الله فلم يزل ملكه ممهداً في هدو وسكون الى ان نزل الترك مرة بمصرى طنجة وسبته فتخوف منهم فردّ بريده للشيخ فلما لحق به البريد سمع الشيخ يقول قبل ان يراه يا ترك ارجعوا الى بلادكم ويا مولاي عبد الله هناك الله في بلادك فرجع الرسول ووردت الانباء على السلطان بانزعاج الترك ورحيلهم في تلك الساعة التي قال فيها الشيخ ما قال ثم ان الشيخ لما قدم مرآكش استدعاه السلطان لداره وضع له طعاماً فابى ان يأكله وقال له من اكل طعام السلطان وهو حلال اظلم قلبه اربعين يوماً ومن اكله وفيه شبهة مات قلبه

اربعين سنة وقوله بمرسى طنجة وسبّة لعلّ صوابه وحجر بادس فإن الترك قد
نزلوا به كما قال ابن القاضى في درّة الحجال وسياتي وذكر بعضهم أن السلطان
مولاي عبد الله لما رأى عمارة الجزائر وسفهم لا ينقطعون عن مرسى حجر
بادس ومرسى طنجة وتخوف منهم اتفق مع الطاغية أن يعطى له حجر بادس
ويخليها من المسلمين فقطع بذلك مادّة الترك في المغرب ولا يجدون سبيلاً اليه
فنزّلوا النصارى على حجر بادس وأخرجوا المسلمين ونبشوا قبور الاموات
وأحرقوها وأهانوا المسلمين كلّ الإهانة ولما بلغ خبر نزولهم عليها لولده مولاي
محمد وكان خليفة على فاس خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين فلمّا كان بوادي
اللبن بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم ونحو هذا ما ذكر عنه أن قائده على
بن تودة دخل البريجة التي بثغر ازموور وأخذ أسوارها وعزم أن يتاصل في
الغد بقيتها ولا يبقى للكفر بها أثراً فكتب له السلطان مولاي عبد الله ينهيه
عن ذلك فراجع النصارى اليها بعد أن ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها ونظير
هذا قضيته مع أهل غرناطة وأطال فيها بما استكفيت أنا عن كتبه هنا وهذه
أمور شنيعة أن صحّ أنّه فعلها ولست أدخل في عهدها أمّا رأيها في أوراق
مجهولة المؤلّف اشتملت على ذمّ هذه الدولة السعدية وظنّي أنّها من وضع بعض
اعدائهم لحطهم من قدرهم وأخراجهم عن النسب الشريف ووصفه دولتهم
بالدولة الحبيثة فلذلك تجنّبت منها كثيراً من الأخبار التي لا تظنّ بأولائك
السادات الأشراف رحمهم الله قال الشيخ تاج الدين ابن السبكي رحمه الله في
طبقاته أن المؤرّخين على شفا جرف هار لأنهم يستظيلون على أعراض الناس
وربّما وضعوا من الناس تعصّباً أو جهلاً أو اعتماداً على نقل من لا يوثق به قال
فعلى المؤرّخ أن يتقى الله تعالى . ألا أن الملوك لا يستغرب في حقهم أن يهدموا
أساس الشريعة لينوا منار رياستهم ويستوهنوا عظام الأمور لتطيعهم الرعية
ساعة وكيف لا وشرع افئدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلتقي سفينة قلوبهم
على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى والله يسامح الجميع ويتجاوز عن كافّة

عصاة هذه الأمة المشرفة بمنه وكرمه

ذكر بقية اخبار مولانا عبد الله رحمه الله

وما وقع في أيامه من الاحداث

قال ابن القاضى لما ولي مولانا عبد الله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدة والعدد ولم تطمح نفسه للزيادة على ما ملك ابوه قبله وفي جهادى الاولى من سنة خمس وستين وتسعمائة حرك له الباشا حسين بن خير الدين التركى في جيش حفيل من الاتراك فخرج مولاي عبد الله للملاقاته فالتقيا بمقربة من وادى اللبن من عمالة فاس فكانت الدائرة على حسين فرجع منهزماً يطلب حياصى الجبال الى ان بلغ بادس لانها كانت للاتراك يومئذ فرجع مولاي عبد الله لفاس ولم يدخلها لوباء كان بها حينئذ وهو وباء عظيم كسى سهل المغرب وجباله واقفى كانه وابطاله ولما رجع مولاي عبد الله من معركته تلك امر بقتل اخيه ابي سعيد عثمان لامر نقمه عليه فقتل في السنة المذكورة وفي يوم الاربعاء الثامن والعشرين من رمضان سنة اربع وستين وتسعمائة خسفت الشمس خسوفاً عظيماً وبعد صلاة الجمعة اول يوم من المحرم فاتح عام سبعة وسبعين بموحدة فيهما وتسعمائة حدثت زلزلة عظيمة وفي اواخر شوال يوافقه وسط مارس من الشهور العجمية عام ثمانية وسبعين بموحدة وتسعمائة قدم مراكش جراد كثير وفي ذي الحجة من سنة خمس وثمانين وتسعمائة قتل الفقيه السيد محمد الاندلسى وكان متظاهراً بالزهد والصلاح حتى استهوى كثيراً من الناس وتبعوه وكانت تصدر منه مقالات من الطعن على ائمة المذهب رضى الله عنهم ينحسرو فيها منحنى ابن حزم الظاهرى ويفوه بمقالات شنيعة في الدين فامر السلطان بقتله فاعتصم بالعمامة ووقعت عليه فتة الى ان قتل وصلب بباب داره من رياض الزيتون انظر الدوحة وفي عام

واحد وثمانين وتسعمائة وقعت وقعة البارود التي انهدمت بها القبة الواسعة بجامع المنصور وانشقت بها صومعة الجامع المذكور وذلك باحتيال من اسارى النصارى فحفروا تحت الارض وملاوه بالبارود لينقلب الجامع باهله يوم الجمعة فكفى الله المؤمنين شر تلك المكيدة ولم يتمكن لهم الحال على وفق ما ارادوه وفي عشرة السبعين بموحدة انشا مولاي عبد الله رحمه الله جامع الاشراف والسقاية الملاصقة بالجامع المذكور التي عليها مدار المدينة بالمواسين والمارستان الذي ظهر نفعه ووقف عليه اوقافاً عظيمة وهو الذي جدد ايضاً بناء المدرسة التي بجوار جامع علي بن يوسف اللمتوني وليس هو الذي انشاها كما يعتقد كثير من الناس بل الذي انشاها اولاً هو السلطان ابو الحسن المريني رحمه الله تعالى حسبما ذكره ابن بطوطة في رحلته وشاع على الالسنه ان السلطان مولاي عبد الله بنا ذلك بصنعة الكيمياء وان الشيخ الصالح ابا العباس احمد بن موسى علمها له لما تلمذ له كما سلف وهذا محض كذب وجهل فان الذي ينقل عن الشيخ سيدي احمد بن موسى ان رجلاً جاء وطلب منه ان يعلمه صنعة الكيمياء فقال له الشيخ حروف الكيمياء خمسة وهي عدد اصابع اليد فان اردتها يا اخي فعليك بالحرارة والفلاحة فتلك كيمياء الناس لا كيمياء الرصاص والنحاس وايضاً فان الشيخ من اكابر الاولياء وما كان ليفتح على مسلم باباً عظيماً من ابواب الفتنة وسبباً بليغاً من اسباب المحنة فان هذه الصنعة من اعظم ابواب الفتن وكان الشيخ ينشد هذا البيت لزايريه كثيراً وهو هذا بعينه

عليك باوسط الامور فانها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعباً

وقد اجمع اولياء الله تعالى على التحذير من خلطة الكيمياء وطلبها لاحد اوجه ثلاثة اولها انها من المستحيلات لما ذكره ابن سينا مستدلاً بقوله تعالى لا تبدل لسخلق الله وكما انه ليس في قدرة المخلوق ان يبدل القرد انساناً والذئب غزالاً كذلك ليس في قدرته ان يبدل الرصاص ذهباً والنحاس فضة

ولقد تناظر فيها رجلان فقال مجوزها انكر ما تشاهده في الصبغ وتغير الجسد
 الاحمر اصفر والابيض اسود فقال له مانعها لا انكر ذلك الصبغ لانه ليس
 تغيير اصل وانما انكر ان ثوب الصوف الابيض ترده صنعة الصبغ قطعاً او
 حريراً احمر او اخضر وانما الصبغ فلا شك ان النحاس يعير ابيض ولا
 يخرج ذلك عن اصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس ابيض كما
 لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف ثانيها انها جائزة الوجود لاكتها معدومة
 في الخارج كما ذهب اليه ابو الفرج ابن الجوزي رحمه الله من ان ثلاثة متفق
 على وجودها في الغالب وقد اتفق على عدم رويتها اهل المشارق والمغرب
 الكيمياء والغول والعنقاء واخبارها كلها على وجه السماع والاسنادات وحكاياتها
 كالموضوعات عن العجماوات والجمادات ثالثها انها على تقدير وجودها ومعرفتها
 يحرم تناولها والبيع والشراء بها وقد سئل عنها ابو اسحاق التونسي رحمه الله
 فقيل له احلال هي ان كانت خالصة فقال لو دبرت الفضة او غيرها من الاجساد
 حتى تصير ذهباً خالصاً لا شك فيه فتى لم يقل بائعها لمبتاعها هذا كان فضة او
 غيرها من الاجساد فدبرته حتى صار ذهباً كما ترى لكان غاشاً مدلساً قال فتى
 ذكر ذلك لم يشتره منه احد ويقال كذلك يدبر غيرك فيرجع الى اصله ومن لم
 يبين فيها فهو داخل في قوله عليه السلام من غشنا فليس منا فتكون صنعتها
 حراماً وذكر ابن عبد البر عن القاضي ابي يوسف انه قال من طلب الدين
 بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء افتقر وكان ابو محمد صالح يقول
 اتركوا ثلاثة لئلا تجرّمكم الى ثلاثة اتركوا شرب الرب لئلا يجرّمكم الى شرب الخمر
 واركوا الاشتغال بصناعة الكيمياء لانها توقع في الغش والتدليس واركوا مجالسة
 العجائز فانها تجرّمكم الى مجالسة الصغائر منهن وقيل لبعض الفضلاء لم لم تتحدث
 بهذه الصنعة فانها تسلي الخواطر فقال قيل للحمار لم لم تحبر فقال اني اكره مضغ
 الباطل وانشد

فقلت لاصحابي هي الشمس ضؤها قريب ولاكن في تناولها بعد

وبالجملة فما شاع عن مولانا عبد الله في ذلك لا اصل له وقد كان اهل الورع
يحتبون الصلاة في جامع الاشراف لما بنى مدّة ويقال ان موضع ذلك الجامع
كان مقبرة لليهود لعنهم الله والله اعلم

ذكر وزرائه وحجابه وكتابه وولاة

مظالمه

وامّا وزراؤه ففهم الامير الجليل الفقيه ابو عبد الله مولاي محمد ابن اخيه
الامير مولاي عبد القادر ابن السلطان مولاي محمد الشيخ رحمه الله وكان من
انبل وزرائه والطفهم مسلکاً واخفهم روحاً له عارضة في النظم والنثر وذكر
صاحبنا ابو محمد عبد الله بن محمد الفاسي رحمه الله في كتابه الاعلام بمن مضى
وغبر من اهل القرن الحادي عشر ما صورته قدم الوزير ابو عبد الله محمد
بن عبد القادر من مراکش لفاس صانها الله ومعه الفقيه قاضي الجماعة ابو
مالك عبد الواحد الحميدي والفقيه الامام ابو العباس المنجور فلما تبدت لهم
معالم فاس الجديد وتلطى للشوق في جوانبهم اوار

وابرح ما يكون الشوق يوماً اذا دنت الديار من الديار

انشد الوزير نفسه بديهة

اخلاي هذا المستقى وربوعه وهذي نواصر البلاد تنوح

وذلك المصلى مسرح الشوق والاسا وهندي منازل الديار تسالوح

فقال القاضي الحميدي ايضاً بديهة

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد
يحسن كاملود من الروض يانع
بهنّ عوان طرفهنّ جموح
شذهنّ من حول الديار تفوح

وقال ابو العباس المنجور مذيلاً ايضاً بديهة

ويرفلن في الحلات يرقن بالحلا
يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر
وفيهنّ انواع الجمال وضوح
لاقبال حبّ طال منه نزوح

ولما بلغت الابيات للشيخ الامام الاستاذ ابي العباس احمد الزموري فقال
مذيلاً ايضاً

تأمل الى الحسناء تحت نقابها
تجملت ربوع المستقى بجمالها
كشمس بدت تحت السحاب تلوح
وانت الى تلك القباب تروح

وجعل بعضهم البيتين الاولين للامام سيدي عبد الواحد بن احمد الشريف
السجلماسى وكان كاتباً عند الوزير المذكور ويجعل موضع اخلاي امولاي
والبيتين بعدها للوزير والمستقى بضم الميم وسكون السين انهملة وفتح المثناة
الفوقية وبعدها قاف مقصور اسم بستان معروف ونظير هذا ما ذكر صاحبنا
المذكور في اعلامه قال كان الوزير المذكور مع كاتبه الامام سيدي عبد الواحد
الشريف في بعض الاسفار وارسلت السماء بغيثها المدرار فقال الوزير

لله اشكو عذاة السفح اذ ركدت
سرى المطايا وحادي الريح يحدونا

فاجابه كاتبه المذكور

والغيم في الافق قد ارنى ذوايبه باسمهم الودق لا ينفك يرمينا

فقال الوزير

حتى استوى الماء في الاكام واستترت معالم الرشيد لا قريب يهدينا
فظلت الخيل في الامواج سابحة سيح الاساطيل ليت الدهر يهدينا

فاجابه الكاتب ايضاً رحمه الله

والنفس في قلق ليس بالفتها والشوق يحدو بنا والحال يقضينا

فقال الوزير المذكور رحمه الله

كأنا لم نبت والوصل ثالثنا حتى غدا الطير فوق الصرح يغشينا

واخبار هذا الوزير رحمه الله كثيرة ومحاسنه اثيرة وخصاله السنية عظيمة خطيرة
توفي رحمه الله في عشرين من جمادي الثانية عام خمسة وسبعين بموحدة
وتسماية ومن حجاجه القايد عبد الكريم بن مومن بن يحيى الجندى العالج وابن
تودة وقاسم الزهرونى واحمد الهبطى ومن ولاية مظالمه ابو عمران موسى بن
مخلوف الكنسوسى وهو والي الشرطة وكان فقيهاً مشاركاً وذكر بعضهم ان
الشيخ الصالح سيدي احمد بن موسى في بعض قدماته على مولاي عبد الله
الحشر الناس لزيارته فوقف ابو عمران هذا يذود عنه وهو يقول لهم رحكم
الله من زار خرج فسمعه الشيخ فقال له لا تقل ذلك بل قل من جار خرج
واما كتابه فنهج السيد محمد بن عبد الرحمن السجلماسى والسيد محمد بن احمد

بن عيسى وغيرها وأما قضاة بمراكش فالفقيه قاضي الجماعة ابو القاسم بن علي الشاطبي وبفاس ابو عبد الله العوفي وعبد الواحد بن احمد الجدي وغيرها بحسب الاحيان والاعوام والملك والبقاء للواحد العلام

ذكر الخبر عن وفاة مولانا عبد الله

رحمه الله تعالى وسپها

قال الفقيه ابو العباس احمد بن القاسم رحمه الله في شرح درة السلوك توفي ابو محمد مولانا عبد الله الغالب بالله في السابع والعشرين من رمضان سنة احدى وثمانين وتسعمائة بسبب غم كان يعتريه . وهذا الغم الذي كان به هو المسمى على السنة العامة بالضيقة اعادنا الله منها وذكر غيره انه توفي بشوال بسبب تكلفه الصيام فعدت عليه العلة الموصوفة وشاع على الالسة انه بات يصلي ليلة سبع وعشرين فوافقه المنيّة وهو ساجد وذلك كذب ودفن رحمه الله عند ضريح ابيه بقبور الاشراف وقبره معروف ومما نقش على الرخامة التي على قبره

ايا زائري هب لي الدعاء تكّرمّا	فآني الى فضل الدعاء فقير
وقد كان امر المؤمنين ومُلكهم	الي وصيتي في البلاد شهير
فها انا هذا صرت ملقى بحفرة	ولم يغن عني قائد ووزير
تزوّدت حسن الظن بالله راحي	وزادي بحسن الظن فيه كثير
ومن كان مثلي عالماً بحضائه	فذاك بنيل العفو منه جدير
وقد جاء ان الله قال تفضّلا	الى ما يظنّ العبد بي سيصير

وحكى ان ابنه ابا عبد الله لما قرا هذه الابيات عاقب ناظمها وقال له ان قولك

بحفرة دسيمة وتلويح الى الحديث الكريم القبر روضة من رياض الجنة او حفرة
من حفر النار فهلا قلت ببلغع او نحو

ذكر الخبر عن دولة السلطان ابي عبد الله مولاي محمد

ابن مولانا عبد الله ابن مولانا محمد الشيخ رحمه الله

بويح له بعد وفاة ابيه سنة احدى وثمانين وتسعمائة وكان ابوه عهد له
بالخلافة في حياته فلما توفي ابوه انقذت له البيعة المستانقة بحضرة مراکش
ووصلت له البيعة لمدينة فاس قال ابن القاضي وآمه أم ولد وكنيته ابو عبد الله
ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة بالمسلوخ لأنه سلخ جلده بعد وفاته
وملى تبناً كما سيأتي ان شاء الله تعالى ووصفه غيره بأنه كان متكبراً غير مبالي
باحد ولا متوقفاً في الدماء شديد العسف على الرعية وكان مع ذلك فقيهاً
مشاركاً في الفنون اديباً مجيداً قوي المعارضة نظاماً ونوراً ومن شعره

خليلى ما يخفى انحصاري عن الصبا فحالا عقالي قد اضر بي الربط
ولا تجعل من لام او من تلوما فان بحور العلوم ليس لها شط

وقد خسر هذين البيتين الفقيه الامام الشيخ الاستاذ ابو العباس احمد الزموري
رحمه الله فقال

الافاعجبوا من عاذل لي قد اضر يا فكم زاد عن عيني كراها واذا
وفي شرعتي حل الخلافه مذهبا خليلى ما يخفى انحصاري عن الصبا
فحالا عقالي قد اضر بي الربط

الا فارعدوا عن عدل صبّ تظلمّا وباليين صار القلب منه متيّما
والحاضه تنهلّ عن غيره دما ولا تجعلوا من لام او من تلومّا
فانّ بحور اللوم ليس لها شطّ

ومن شعره ايضاً قوله

فقم بنا نصطح قهواء فانية في وجهها عسجد في وجهه نقط
وانهض اليها على رغم العدا قلنا فانّ تاخير اوقات الصبا غلط

وقد حمّس هذين البيتين الفقيه المذكور ايضاً فقال

كم شادن بسهام اللحظ ءاونة رمى فؤادي وكم حوراء سافكة
وفي العقار اغتم داباً مسالمة فقم بنا نصطح قهواء فانية
في وجهها عسجد في وجهه نقط
وخلّ عن عاذل باللوم قد نطقا وبككته واكد فيه مطفقا
لايعرف الشوق الا والتزم ارقا وانهض اليها على رغم العدا قلنا
فانّ تاخير اوقات الصبا غلط

ومن شعره ايضاً رحمه الله قوله

ساروا فسار فؤادي اثر طعنهم وخلفوني نحيل الجسم حيرانا
لافتّر ثغر الثرى من بعد بينهم ولاسقى هاطلّ ورداً وريحاناً

وقد حمّسه ايضاً الفقيه المذكور فقال

استخبروا خبري بعد انفصالهم قد اضرمت في الحشا نار بعادهم
وصبوتي لن تري نفسي لغيرهم ساروا فسار فؤادي اثر طعنهم

وخلّفوني نجيل الجسم حيرانا
قد كان صفو حياتي يوم قريهم ولوعتي في اقتراب من بساطهم
والان ابقيت في فيفا غرامهم لا افتّر ثغر الشرى من بعد بينهم
ولاسقى هاطلّ ورداً وريحانا

ولم تطل خلافته رحمه الله الا الله بقي الى اواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة
فاتاه عمّه ابو مروان عبد المالك بجيوش الاتراك فاستلبه ملكه ونبذ دونه وكان
خليفته بمراكش القايد على بن شقرا وحاجبه احمد بن حم الدرعي وكتابه يونس
بن سليمان التاملي وعلى بن ابي بكر وغيرها

ذكر الخبر عن مجيئ ابي مروان مولانا عبد المالك

بن مولانا محمد الشيخ

يجند الاتراك وغلبته على ابن اخيه مولاي محمد بن عبد الله المذكور

اما توفي السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ رحمه الله وولي بعده ولده
مولاي عبد الله رحمه الله كما تقدّم وكان مولانا عبد المالك الغازي واحمد
النصور بسجلماسة وحين بلغتهما وفاة ابيهما واستيلاء اخيهما على الملك بعده
فرّا الى تلمسان خوفاً على انفسهما منه ولحق بهما اخوهما مولاي عبد المودن
فبقيا بها مدّة ثم فرّا الى الجزائر ولم يزالا مقيمين بها الى ان بلغهما خبر وفاة
اخيهم عبد الله واستبداد ولده مولاي محمد بعده بالملك فسار عبد المالك الى
اصطنبول وهي القسطنطينية العظمى قاصداً لتسلطان مراد العثماني ابن السلطان
سليمان المدعوّ بسايمان شاه ابن السلطان سليم خان العثماني فنزل عليه وطلبه ان يمدّه

بجيش يذهب به الى المغرب فينتزغ الملك من ابن اخيه فغضب عليه السلطان
مراد ولم يوافقته على غرضه فلم يزل عنده هو وامه سحابة الرحمانية الى ان
اجابهما الى ذلك وذكر بعضهم ان سبب ذلك ان تونس تغلب عليها العدو
الكافر فسكن قصبتها وسكن المسلمون نصفها بعد ان ضربت عليهم الجزية
ورضوا بالبقاء تحت الذمة وذلك بسبب ان ملك افريقية وملك تونس كانا اخوين
وانشبت بينهما نيران الحروب الى ان تغلب ملك افريقية على اخيه ملك تونس ففر
ملك تونس الى طائفة النصارى فجاء معه بجيوش الروم الى ان تملكوا تونس كما
ذكر وفعملوا فيها الافاعل العظيمة وانتهكوا حرمت المساجد وذكر المنجور في
فهرسته ان ابا الطيب الظريف التونسي كان واعظاً بجامع الزيتونة رحل لفاس
بعد اخذ العدو لتونس فخطبه قاضي الجماعة بفاس ابو الحسن علي بن هارون
رحمه الله بآيات منها قوله

سأفك الغيث اذ الغيث انهمر	حضرة الانس البديع الموتى
لم يكن الا كالمح البصر	او يريق لاح لي يا تونس
يا لها من فجعة زبد الخبر	اتها شقيقة الاندلس
كم خدود في وجوه كالقمر	خذاها دمع جرى من نرجس
حالكات غيّرت منها الصور	ذل اسر بعد عز الانفس
اصبحوا اسرى بايدي من كفر	ملكك ارقابهم بالافلس
ما لتترك بقسى ووتر	اخرجوهم من ظلام خدس
واستعينوا بعلى وعمر	وابي بكر الرضى مع انس
وارغبوا الله مساء وبكر	فمضى فتح من الله عس
رب بشرى بنصر وظفر	عاجلاً قبل حلول الرمس
وارى الكافر مقبوضاً يجر	بارتفاع البيض فوق الارءس
وابا الطيب طاب ونشر	كتبه يقرأ فوق العكس

وعلا الاسلام والحق انتشر بعلو هاشمي النفس

فاجابه ابو العلي بابيات منها قوله

أيها الشيخ الفقيه المعتبر سيد العصر وصدر المجلس
قد تفضلتم بنظم كالدرر حلّ من قاي محلّ النفس
هاجني شوق اقتفاء لالثر ان اكن عن دركه ذا فلس
كلما هب نسيم للسحر وقعت اطيّاره لتغلس

وقال في النحلة المسكية ان النصارى لما استولوا على تونس وانتزعوها من يد
بقية الامراء الحفصيين قسموا البلاد بينهم وبين من بقى تحتهم من المسلمين
نصفين فسكن النصارى قلعة البلاد وما والاها وسكن المسلمون بقية بعد ان
هدم النصارى في جانب المسلمين كل ما كان حصناً من باب ودار وحائط ثم
بنوا حصناً اخر منيعاً على باب المدينة خارجها ثم بنوا مثله في وسط بحيرة
ممدودة من المرسى الى باب المدينة وعند المرسى حلق من البحر يدخل اليها
وبها سمى حلق الوادي وليس هناك واد عذب ثم بنوا على المرسى حصناً
عظيماً وقشياً منيعاً متقناً عجز الترك لما اخذوه عن هدمه وملكوه بالانفاض
والمدّة والرجال والقوت بحيث ايقنوا انهم ملكوا تلك البلاد وأنه لا يأتي من
يقدر على اخراجهم منها ثم ان الترك انتدبوا اليها وخرجوا اليها فيقال ان
السلطان مراد بينما هو نائم ذات ليلة وقف عليه رجلان في النوم وقالاه ان
لم تغث العرب فما انت من المسلمين فتوحاً ورجع الى فراشه مستعيذاً بالله من
الشیطان فوقفا عليه وقالاه ما قالاه أولاً فقال لهما في المرة الثانية من اتاهما
فقال احدهما انا ابن العروس وهذا ابن الكلاعي وهما من صالحاء تونس فانتبه
وقصّ روياء على اصحابه فاعلموه بخبر تونس كيف وقع بها الواقع فوجه اليها

جيوشاً حافلة في البحر ففي كتاب النفحة المسكية ايضاً ان عدد السفن التي وجه اليها اربعماية وخسين سفينة من القسطنطينية العظمى ومن غيرها من ساير افريقية فيها مائة الف مقاتل وازيد وبعث معهم مولانا عبد المالك رحمه الله فهزم الله الكفرة ومكن من رقابهم السيف وطهر البلاد من نجسهم بعد ان حاصرهم اربعين يوماً وذلك عام اثنين وثمانين وتسعمائة فكان مولانا عبد المالك اول من ارسل بالبشارة مع اصحابه الى السلطان العثماني فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فاعطت للسلطان المذكور ما كتب به ابنها وانتمست منه ان يعطيها في بشارتها امر اهل الجزائر بالذهاب معه للغرب فاعطاها ذلك فجاء عبد المالك مع أمه بكتاب السلطان الى اهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه الى تملك ما كان بيد ابائه فطلبه اهل الجزائر بالراتب فقال لهم اسلقوني وعلى الخلاص فاتفق ان يعطيهم عشرة الاف في كل مرحلة وكان عدد جيش الترك اربعة الاف وقال في شرح الدرة ان عبد المالك طلب من راييس الاتراك ان يعينه بحصة منهم توصله الى حد بلاده ليدخلها اذ الجند كله جند والده فلا يمكن ان يقاتلوه ويضربوه في وجهه لتعظيمهم آياه فاسعفه على مراده وارسل معه عصابة وحصة قليلة فاقبل بهم الى موضع يقال له الركن من احواز بني وارئين من بوادي مدينة فاس المحروسة فلما سمع ذلك نجى اخيه مولاي محمد بن عبد الله خرج الى لقائه بنفسه فالتقى الجمعان بالموضع المذكور فلما التقيا فر راييس جند الاندلس سعيد الدغالي الى عبد المالك وكان عبد المالك يكاات دائرة مولاي محمد وبطانته ورايس اجناده ويعد طائعهم ويوعده عاصيم فلما سمع مولاي محمد بفرار جند الاندلس الى عمه مع قائدهم بت في عضده وفشلت ريمحه وايقن بالنكبة ظناً منه ان جنده كله سيفعل مثل الدغالي فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب انحرام ملكه واقامة ملك عمه ويقال ان بعضهم لما راي القائد كرماني واولاد عمران هربوا الى عبد المالك جاؤا الي محمد وقالوا له ان القائد ابن شقرا غدر وفر الى عبد المالك فارتاع

محمد لذلك وانقلب منهزماً وانتهت خزاينه واوقدوا فيها النار حتى رئي البارود من الجبال ودخل محمد فاس الجديد واخذ ما يعز عليه من الذخائر ثم خرج فاراً متوجهاً الى مراكش فلحق به القائد علي بن شقرا بوادي النجا بمقربة فاس واغلظ له في القول ولامه على عدم التثبت والتأني والصبر وكان امر الله قدراً مقدوراً

ذكر الخبر عن دولة ابي مروان مولانا عبد الملك

واستيلائه على المغرب

قال ابن القاضي كان دخول ابي مروان عبد الملك الى فاس واستيلائه عليها بعد هزيمة ابن اخيه اواخر ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة وبعد ان دخلها وبايعه اهلها وبقي فيها أياماً طمحت نفسه الى اتباع ابن اخيه لمراكش ولما عزم على التوجه تلقاء مراكش طلبه الترك ان يردّهم الى بلادهم وان يعطيهم المال الذي اتفق معهم عليه وهم يسمونهم بلغتهم البقشيش فاعطاهم اربعمائة اوقية لكل واحد واستسلف المال من كبراء فاس حتى يتسع عليه الحال فاعطاهم خمسمائة الف واعطاهم عشرة من الانفاض منها النقص الكبير الذي له عشرة افواه وزادهم من تحف المغرب وظرفه ما سأل به انفسهم وركب لوداعهم بنفسه الى نهر سبو ثم رجع وتوجه لمحاربة ابن اخيه بجنوده التي اقامها هو وكان غرسها بيده وبما انضاف اليه من جند ابن اخيه فسار بهم الى مراكش ولما سمع ابن اخيه بخروجه اليه وقصده مراكش تهيأ للملاقاتة وسار لمنازلته فالتقى الجمعان بموضع يقال له خندق الريحان على مقربة من الشراط من احواز سلا فكانت الهزيمة ايضاً على محمد ابن عبد الله وفرّ مثل دابه وعادته وتبعه عمه ابو العباس المنصور خليفة ابي مروان فلما سمع محمد باتباعه

بعد بلوغه الى مراكش مرّ عنها لجيل درن واسلم له مراكش فدخلها ابو
العباس المنصور نائباً عن اخيه ابي مروان فلما استقرّ لمراكش لحق به اخوه
السلطان ابو مروان ودخلها واقام بها مدة ثم خرج منها في طلب ابن اخيه
فعميت عليه انبأؤه فرجع ابو مروان لمراكش ثم ان ابن اخيه لم يزل يجول
في جبال السوس لا يقرّ له قرار الى ان اضاف لنفسه طائفة من الصعاليك
واجتمع له منهم شبه الجيش فتوجه بهم الى مراكش فسمع به ابو مروان فخرج
للملاقاة فخالفهم محمد في الطريق وسلك طريقاً غير طريق ابي مروان وقصد
مراكش فدخلها باتفاق اهلها ونصروه وكتبوا له البيعة الا انه لم يتمكن من
القبضة لان ابا مروان ترك بها اخته الست مريم في نحو ثلاثة الاف من الرماة
فتحصنوا بها وبلغ الخبر ابا مروان بحول محمد مراكش فرجع مسرعاً الى ان
واقاه بمراكش فحاصره بها وكتب الى اخيه احمد المنصور ان ياتي بجيش فاس
مسرعاً وكان احمد المنصور لما دخل مراكش اولاً وهرب ابن اخيه محمد الى
سوس طلب من اخيه ابي مروان ان يخلّقه على فاس فاعطاه اياهما وكان الوزير
عبد العزيز المندعو عزوز بن سعيد الوزكيتي حاضراً للطلب والعطية فانكر ذلك
عليهما ولم يره صواباً وقال لهما لا ينبغي لكما ان تجاسا حتى يحكم الله بينكما
وبين ابن اخيكما فغاظ ذلك احمد المنصور وظنّ ان ذلك من سوء راي عبد
العزيز في جانبه ومن بغضه فيه ولم ينصتا لمقالة الوزير فذهب المنصور خليفة
الى فاس فلما رجع المنصور الى مراكش بالجيش تلاقي مع عبد العزيز فقال له
وقفت على الراي اول الفكرة اخر العمل فبانت للمنصور نصيحته وزال عنه
ما كان يخلج في صدره ولما جاء المنصور بجيش فاس فرّ محمد الى السوس وبقي
اهل مراكش متمادين على الحصار الى ان اتفق ابو مروان مع اعيان كرامة
فادخلوه من الاسوار وبعض الانقاب ولما توجه محمد الى السوس تبعه المنصور
فكانت بينهما حروب عظيمة اتاح الله فيها النصر للمنصور وهزم محمد كما دته ففرّ
الى جبال درن ثم دخل طنجة مستصرخاً بعظيم الروم والى الله عاقبة الامور

يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء ولا يسأل عمّا يفعل

ذكر الخبر عن مولانا محمد بن عبد الله واستنصاره بالنصارى

وما وقع بسبب ذلك

كان مولانا محمد بن عبد الله عفا الله عنه لما ضاق ذرعاً بعمه ابي مروان لم يجد منه ملجأً ولا مفرّاً ذهب لطاغية النصارى عظيم نصارى بردقيس فاستصرخ به واستغاثه على عمه فاغاثه وبعث معه جيوشاً كثيرة ومن هناك كتب مولاي محمد رسالة الى اعيان المغرب من علمائه واشرافه وذوي الراي فيه يخطي عليهم في نكث بيعته ونقضها ومبايعة عمه من غير موجب شرعى وقال لهم ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين وقد قال العلماء يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه بكل ما امكنه وهددهم في رسالته وابرق وارعد وعدد واوعد وقال فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وسمى النصارى اهل العدو واستكف عن تسميتهم نصارى فاجابه علماء الاسلام رضى الله عنهم عن رسالته تلك رسالة دافعة لحيش اباطيله وفاضحة لذكرك تاويله وهذا نص تلك الرسالة المذكورة حرفاً حرفاً فالحمد لله كما يجب لجلاله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير انبيائه وارساله والرضى عن الله واصحابه الذين هاجروا لدين الاسلام وهجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به حتى أسس الله دين الاسلام بشروط صحته وكاله وبعد فهذا جواب من كافة اهل المغرب من الشرفاء والعلماء والصلحاء والاجناد والرؤساء وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد الله السعدي رحيمهم الله عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب واستدل بحججه الواهية الاطباب المنتكبة عن الصواب قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب لو رجعت على نفسك باليوم والعتاب

لعلمت أنك المحجوج المصاب فقولك خلعتنا بيعتك التي التزمناها وطوقناها اعناقنا وعقدناها والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع ولا عن سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع وإنما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه وعلى الحق وتحقيقه وسنشرح لك ذلك ونبينه ونسطره لك بأدلة الشرع وسنته وتعيينه نعم كنت سلطاننا بما عقد لك والدك من البيعة وترك لك من الاموال والذخائر والعدة والعدد والحصون ما لم يتهيأ مثله لاحد من اسلافكم الكرام رضوان الله عليهم اجمعين فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حق جهاده حتى استخلصوا من ايدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلادهم واسسوا لدين الله قواعد واركاناً وملكوا من المغرب بلاداً معتبرة واوطاناً فلما وصل اليك ذلك التقت اليك العباد اعنتها وملكتك ازمتها غير مبدلين ولا مغيرين ولا طاغين ولا متكبرين الى ان قام عليك عمك فحجبتك التي لا يمكنك جدها حسباً ثبت كما يجب عقدها فخرجت مبادراً له برفعها ولقيته بها وانت واسطة عقدها وحامل راية عهدها وعمك في فئة لا يخطر على بال عاقل ان يتقابل جنداً من جنودك او يدافع ما تحت لواء من الويتك وبنودك فما هو الا ان جرى القتال وحضر النزال رجعت على عقبك هارباً هروب مطرود القصاص وجنودك تناديك ولات حين مناص فتركت عدوك ومحلتك بكل ما فيها وخلفتها لعدوك بينها ويسبها وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها ينادونك لم تركتنا والى من تكلنا فلم تلفت اليهم واسلمت بلادهم بما فيها من خزائن الاموال والاعداد الوافرة من الرجال والاسوار المرتفعة المانعة والمدينة المشهورة الجامعة فاصبح اهلها واليد العادية من السفهاء والمفسدين تريد ان تمتد ايديهم الى الحريم والاموال والاولاد والطارد والتلاد ولا دافع عن الضعفاء والمساكين الا الله سبحانه الذين قال في مثلهم ومن اصدق من الله قيلاً لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فما امكنهم بعد هروبك عنهم واسلامك لهم فوضى الا النظر في امرهم واعمال الفكر في التدبير على انفسهم فينماهم كذلك اذا بعك وجنوده

على باب مدينتهم قائماً بحجته سالكاً في ذلك سبيل أبيه رحمه الله ومحجته حسماً
تقرر ذلك عندكم وظهر ولم يخف عنكم منه عين ولا اثر اذ كان مولانا محمد
الجدة الأكبر عهد لاولاده مولانا احمد ومولانا محمد الشيخ واخوانهما الا يتولى
الخلافه منهم ولا من اولادهم الا الأكبر فالأكبر فالتزموا ذلك الى ان كبر
اولادهم فطالب جدك من اخيه الوفاء بذلك فامتنع فقاتله على ذلك حتى تم له
الامر وانتظم فعهد لوالده الذي كان أكبر اولاده فلم ينازعه احد في ذلك الى
ان القى والدك رحمه الله ذلك وعهد اليك ولم ينازعهك احد فابى الله الا ان يحق
الحق فاعطى الملك لعمك الذي هو أكبركم بعد ابيك فان سلمت هذا فابي حجة
تدلي بها وابي طريق تعتمد عليها وان انكرت هذا فلا اثر لخلافه ابيك من
قبلك ولا لجديك من قبله لتبوتها لعمكم مولاي احمد اذ لا حجة حينئذ لجديكم
في القيام على اخيه مولانا احمد فخلافته صحيحة لبيعة جدك له فلم يبق الا التغلب
الذي تدلي به في مسألة عمك وفي قيامه عليك فان كنت تريد ان تسقط حجته
بالتغلب عليك فحجتك اين في السقوط لعدم ثبوت الخلافه لمن عهد هالك اذ
المعدوم شرعاً كالمعدوم حساً فلم يبق بينكم الا الملك بعد ابي ليلي لمن غلب
فيلزمك على هذا ان تثبت ما عقده مولانا الجدة رحمه الله في خلافته لعمك القائم
عليها اذ هو أكبركم في هذا التاريخ فان قلت ان ما عقده الجدة غير صحيح قلنا قد
ذكر الامام الماوردي رحمه الله في كتاب الاحكام السلطانية له في باب عقد
الخلافه ان عبد الملك بن مروان رتبها في الأكبر فالأكبر من بنيه فلم ينازعه احد
في ذلك فان قلت فعل عبد الملك ليس بحجة قلنا سكوت العلماء على ذلك وهم
ما هم في زمانه هو الحجة اذ لا يمكن لهم ان يسكتوا على باطل واقرار اهل
العصر الواحد على مسألة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الاجماع الذي
هو حجة الله في ارضه وكان ايضاً من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه
مسلم رضى الله عنه في صحيحه في كتاب الامارة ما نصه قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم يرفع لكل غادر يوم القيامة لواء يعرف به يقال هذه غدرة فلان

بن فلان الآ ولا غادر اعظم غدرأ من امير عامة غدرهم قال القاضي ابو الفضل
 عياض بن موسى رحمه الله في كتاب اكل انعم على شرح مسلم يعنى لم يحظهم ولم
 ينصح لهم ولم يوف بالعقد الذي تقلده من امرهم وفي الباب بنفسه عنه عليه
 السلام ما من امير استرعاه الله رعية فلم ينصح لهم الآ لم يرح رائحة الجنة وان
 ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام وفي كتاب الاكل بنفسه قال القاضي والذي
 عليه الناس ان القوم اذا بقوا فوضى مهمالين لا امام لهم فاهم ان يتفقوا على
 امام يبايعونه ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض ويقيم لهم الحدود فلما
 اسلمتهم واصبحوا بغير امام وعمك يدلي بحجته التي ذكرنا لك مع ما حفظوه
 من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام السلف الصالح وايسوا من رجوعك لهم
 وبقوا فوضى مهمالين لم يسعهم الا الرجوع لما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا
 على ان يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التي لا يسعك جحدها الآ على
 وجه المكابرة فاطمان الناس وسكنوا وانفتحت السبل واقامت الحدود وارتفعت
 اليد العادية فان قلت الان يجب على اهل فاس ان يقاتلوا على البيعة التي
 التزموها لك قلنا انما يلزمهم القتال ان لو اقامت بين اظهرهم فيكون القتال على
 وجه شرعي لان القتال على الحدود الشرعية انما يكون بعد نصب امام يصدر
 الناس على رايه ويمكنك ايضاً جحدها ايه ثم وصلت مراكش الغراء التي تجي
 اليها الاموال من البوادي والامصار وتشد اليها الرحال من سائر النواحي
 والاقطار فانيك اهلها بالرحب والسرور وانواع الفرح والحبور فوجدت
 خزائنها تتوج ملي من كل شيء فاما اسوارها ورجالها فهي كما قيل تربة الولي
 والبرج النبي الجلي ودرج الحمى فخائتها وتمكنت من اموالها وخرائنها ووافقت
 اهلها فما نكشوا ولا غدروا ولا خرجوا عليك في سلطانك ولا نكروا فطلبت
 ايضاً قتال عمك وجئت جنوداً لا يجمعها ديوان حافظ ولا يحيط بعدها لسان
 لا فظ فخرجت اليه تجر اعنة الحيل وراءك كالسيول والرماة ملات الهضاب
 والتلول فما كان حديثك الآ ان وقع القتال وحضر الضرب والطعان والنزال

فبادرت هارباً محكماً للعادة تاركاً للروساء من اجنادك القادة فحلت بهم
الخطوب والرزايا واختطفتهم ايدي المنايا فتركت ايضاً محلتك بما فيها من حريمك
واموالك وعدتك ورجالك ثم اسرعت هارباً لمراكش فما صدك احد من اهلها
ولا قال لك لست ببعليها فعملوا على القتل معك والتمتع باسوارها الحصينة
والحصار داخل المدينة فلما كان الليل غدرتهم وغدرت بناتك ونساءك واخواتك
وعمائتك وخرجت عنهم من القصبية وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ولا
راجل ولا فارس فيا لها من مصيبة ما اعظمها ومن داهية ما ادهمها ولولا فضل
الله ولطفه ووعدده بتطهير اهل البيت لامتدت اليهم ايدي السفلة من الفسقة فاي
حجة تبقى لك بعد هذا واي كلام لك بين الرجال يا هذا ثم جاءها عمك ايضاً
بما سلف من الحجاج فوجد اهلها في لطف الله سبحانه وهم يحرسون اولادهم
وديارهم من اليد العادية فانقدهم الله به ايضاً فبايعوا عمك واطمانوا وسكنوا
ثم هربت الى الجبل عند صاحبه فصرتها في نهب اموال الرعية وسفك دماهم
وأكثر ما صفي لك من ذلك اهل الذمة المصغرين بحكم القرآن الداخلين تحت
عهد سيد الثقلين في الامن والامان فانت وآياهم في استيلائك وظلمك كما قيل

ان هو مستولياً على احد الا على اضعف المجانين

ولم تبال بقول النبي صلى الله عليه وسلم انا خصيم من ظلم ديناً يوم القيامة
ثم خربت العامر وافسدت ما شيد الاسلاف للاسلام من المنائر فلما رأى
اهل السوس الاقصى ذلك ايقنوا انك انما قصدت خراب الاسلام واهله
فتكبدت عنك اهل الدين والعلم منهم وبقيت كما قيل كجلاء الاجرب فان قلت ان
اولائك الخلق لم يبايعوا عمك فتقص بهم ما قررناه قلنا لم يطعن في خلافة امير
المومنين على بن ابي طالب رضى الله عنه من تخلف عنها من اهل الشام وفيهم
من قد علمت من الناس واجماع على صحة بيعته ويسمى من تخلف عنها باغيها

الحديث أنّ رجلاً من المشركين تمّن عرف بالنجدة والشجاعة جاء الى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوجده يحدّ شفرة فقال يا محمد جئت لانصرّك فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم ان كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فقال لا افعل فقال له عليه السلام اتّي لا استعين بمشرك وما سمعته من قول العلماء رضى الله عنهم في الاستعانة بهم أمّا هو بان تجعلهم خدمة لازبال الدوابّ ونحو ذلك لا مقاتلة فأما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر الآلى على بال من قلبه وراء لسانه وقولك يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه بكلّ ما امكنه وجعلك قولك هذا قضية انتجت لك دليلاً بجواز الاستعانة بالكفار على المسلمين ففي ذلك من مصادمة للقرآن ما لا يخفى وهو عين الكفر ايضاً والعياذ بالله وقولك فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ايه انت مع الله ورسوله ومع حزبه فتأمل ما قلت وفي الحديث يتكلّم احدكم بالكلمة تهوى به في النار سبعين خريفاً ولما سمعت جنود الله وانصاره وحماة دينه والعرب والعجم قولك هذا حملتهم الغيرة الاسلاميّة والحمية الايمانيّة وتجدد لهم نور الايمان واشرق عليهم شعاع الايقان فن قائل من يقول سترون ما اصنع عند اللقاء ومن قائل ليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين ومن قائل يقول أمّا قصدي التشقّي في المسلمين اذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعال القبيحة الى غير ذلك فجزاهم الله عن الاسلام خيراً رضى الله عنهم وبارك فيهم فله درهم من رجال وفرسان وابطال وشجعان فلو لم يكن منهم الا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافياً في صحة ايمانهم وعظيم ايقانهم فقد بلغ نور غضبهم في الله سبحانه ساق العرش والحبّ في الله والبغض في الله من قواعد الايمان وقولك ايضاً متّبياً من حول الله وقوته فان لم تفعلوا فالسيف فهو كلام هديان يدلّ على قلة حياء قائله فقط اسيفك هذا نبا وانت مع المسلمين اربعاً وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ثم زال نبوه الان بالكفار فهذه اخوكة فتأملها وأمّا ما نسبتم لامام دار الهجرة فكفالك عجزاً ان تعيّن لنا نصّاً جليّاً نعتمد عليه فيما تحتجّ به وأمّا ما نسبتم

للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وإباحة الفصّة بخمر فهو مما نصّ عليه المالكية في مختصراتهم التي ألفوها لأصبيان فعدوا لك عن ذلك إلى نصّ الحنفية أمّا تصور وأما الغناء لمذهب مالك رضى الله عنه وهو النجم الثاقب وأمّا قولك أتم أهل بني وعناد فلا نسلم لك ذلك إلا لو أقمّتين أظهرنا وقائمتي معنا حتى ترى إنسانك أم لا فأما إذا هربت عنا وتركنا فالحجة عليك لا علينا على أنك في كتابك تفسق الكلّ بذلك وتكفره وقد قال العلماء رضوان الله عليهم من يقول بتكفير العامة فهو أولى بالتكفير وذلك معزز لزعيم الفقهاء ورئيس العلماء أبي الوليد بن رشد والقاضي أبي الفضل عياض رحمهما الله وكيف لا تنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرها من سائر البلدان كيف وقع لامرأته المستنصرين بالكفر على المسلمين هل حصلوا على شيء مما قصدوه أو بلغوا شيئاً مما أملوه على أن أكثر العلماء حكم برّدتهم ففادتهم الدنيا والآخرة والعياذ بالله وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك وعوّلت على بلوغ الملك بجيوشهم وأتى لك هذا مع قول الله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ويأى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن تغلب هذه الأمة ولو اجتمع عليها من الكفر ما بين لأمات الدنيا وعنه صلى الله عليه وسلم سيقا تل هذه الأمة الدجال وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنين ومنعني واحدة سأله ألا يهلككم بسنين كسنى يوسف فأعطانيها وسأله ألا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها وسأله ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها والكلّ عليك وآياك نعى وما ذكرته عن عمك المنصور فأعلم أنه لما بلغه خبرك واستشارك بالكفر عقد الراية المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله حملة القرءان مائة ختمة وصحیح البخاريّ وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامل الشاخص المبین فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن

ابواب السماء قد انفتحت لذلك وقضى ما هنالك وبلغه كتابك الذي كان هذا جوابنا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وانصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة ولولا انّ الشرع العزيز امر بتعظيم جيوش الاسلام وجنوده اهل الايمان والمباهاة بها والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم امرها اذ لا اعتماد له ايده الله عليها وكذلك هم لا اعتماد لهم وله الا على حول الله وقوّته ونصره وتأييده والناس على دين الملك وقد قاتلك في جيش المسلمين في بضع عشرين معركة ثمّ لم تنصر لك راية فايّ شوم ونحس حلالا بديار الروم فان حلت بهم فالله لك ولهم بالمرصاد فارجع الى الله ايها المسكين وتب الى الله فانه يقبل التوبة عن عباده في كلّ وقت وحين ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقالاه وهذه نصيحة ان قبلتها وموعظة ان وفقت اليها وانه يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهونعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام

ذكر الخبر عن غزوة وادي المخازن وما

وقع فيها للمسلمين من النصر المين

قال في المنتقى هذه الغزوة من الغزوات العظيمة والوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من اولياء الله تعالى حتى أنّه اشبه شيء بغزوة بدر حدثني شيخنا ابو راشد يعقوب الديرّي عمّن يثق به أنّ الرجل من حاضري ذلك المعترك يستبق للنصرانيّ لينتهر به الفرصة فما يصله حتى يجده ميتاً . وكان خروج النصارى في هذه الوقعة بجيوش حافلة وجوع عديدة يقال أنّه زهاء مائة الف وخمسة وعشرون الف مقاتل وقصدوا هلاك المغرب وحسر المسلمين وادارة رحي الهوان على اهل الدين فعظم ذلك على الناس وامتلات قلوبهم رعباً وصدورهم

كرباً وبلغت القلوب الحناجر واشتعلت على اهل العقول نيران الهواجر الى ان اتاح الله لهم نصر دينه واعلاء كلمته وظهر من لطيف صنع الله تعالى ما لم يخطر لاحد ببال وسبب ذلك كله ان محمد بن عبد الله لما دخل طنجة قصد الطاغية واستصرخه على عمه وطلب منه المعونة فشرط عليه الطاغية ان يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك كله فقبل ذلك منه محمد بن عبد الله والتزمه واسم هذه الطاغية بستان البرتقالي ويقال برتقيس فخرجوا بجيوش وافرة وسلف بيان نهايته حسبما انهاء ابن القاضي والذي عند غيره انهم كانوا نحواً من ستين الف وقال في المتقى وعدد الكفرة مائة الف وخمسة وعشرون الفا الخمس والمشرون بقيت في السفن والمائة الف حضرت القتال اسر بعضهم وقتل الباقي . وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثماية من اصحابه قال بعضهم وكان عدد الانفاض التي يجرونها مائتين من الانفاض فشذوا الغارات على اهل السواحل فاعلموا اهلها السلطان عبد المالك وكان بمراكش وشكوا له كلب العدو عليهم فكتب عبد المالك من مراكش الى الطاغية ان سطوتك قد ظهرت في خروجك من ارضك وجوازك البحر الى العدو فان ثبتت الى ان تقدم عليك فانت نصراني حقيقي شجاع والا فانت كلب ابن كلب فلما بلغه الكتاب غضب وشاور اصحابه هل نقعد هنا حتى ياتحق بنا من خلفنا من اصحابنا فقال لهم محمد بن عبد الله الراي ان نتقدم ونملك تطاون والقصر والعرايش ونجمع ما فيها من العدة ونتقوى بما فيها من الذخائر فاعجب ذلك الراي اهل الديوان ولم يعجبه هو وكتب عبد المالك الى اخيه احمد ان يخرج من فاس واحوازها بالحيوش ويتهيأ للقتال وكتب عبد المالك الى الطاغية اني رحلت اليك ستة عشر مرحلة اما ترحل اليّ واحدة فرحل العدو من موضع يقال له تهدارت ونزل على وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة وكان من عبد المالك مكيدة ثم ان الطاغية قطعت بحيوشه وعبر جسر الوادي ونزل من هذه العدو فامر عبد المالك بالقنطرة ان تهدم ووجه لها كتيبة من الخيل فهدموها

وكان الوادي لا مشرع له ثم زحف عبد المالك الى العدو بجيوش المسلمين وخيل الله المسومة وانضاف له من انتطوعة كل من رغب في الاجر وطمع في الشهادة واقبل الناس سراعاً من الافاق وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل وكان ممن حضر من الاعيان ابو المحاسن سيدي يوسف الفاسي وغيره وسمعت ان الشيخ الغوث سيدي ابا العباس السبتي رحمه الله رثي فيها جهاراً على فرس انهب وهو يحضّ الناس على التقدم ولا يستكر مثل هذا فان الشهداء احياء عند ربهم فالتقت الفئتان وزحف بعضهم الى بعض وحمى الوطيس واسودّ الجو بنقع الحياذ ودخان مدافع البارود واشتدّ القتال وكثر الضرب والطعن واستمرّ الزال فلما قامت الحرب على ساق والتفت الساق بالساق توفي عبد المالك عند الصدمة الاولى منه وكان مريضاً في محفته وعند ما اضرمت نار القتال وكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ انه لم يطلع على وفاته احد الا حاجبه ومولاه رضوان العليج فانه كتم موته وصار يختلف الى الحباء ويقول ان الامير يامر فلاناً ان يذهب الى موضع كذا وفلاناً ان يلزم الراية وفلاناً ان يتقدم وفلاناً ان يتأخر وهكذا وقال شارح الزهرة ولما مات عبد المالك لم يظهر الذي كان سايس المحفة موته فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو ويقول للجند الملك يامركم بالتقدم الى الكفرة وعلم ايضاً بموته اخوه المنصور فكتمها ولم يزل كذلك والناس في المناظرة ومدانة القواضب واحتساء كؤس الحمام الى ان هبت على المسلمين ريح النصر وساعدهم الدهر وأثمرت كلهم زهور الظفر فوثقوا المشركون الادبار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف في رقابهم ففروا ولات حين فرار وقتل الطاغية البرتقالي غريقاً في الوادي وقصد النصارى للقطرة فلم يجدوا لها اثرأ فكان ذلك من أكبر الاسباب في هلاكهم واعظم الحبايل في اقتصاصهم ولم ينبج من الروم الا عدد نذر وشرذمة قليلة وبحث في القتلى عن محمد بن عبد الله فوجد غريقاً في وادي لكس وذلك انه لما راي الهزيمة التي بنفسه فيه ورام قطعه فغرق فيه فاستخرجه الغواصون

فسلخ جمادى وحشى تبناً وطيف به في مرآكش وغيرها وممن وجد في القتلى
ابو عبد الله محمد بن عسكر صاحب دوحة الناصر فانه هرب مع المسلوخ وكان
من بطانته ودخل معه بلاد الروم فوجد ميتاً بين قتلى النصارى صريعاً وتكلم
الناس في امره حتى قيل انه وجد على شماله مستدبراً للقبلة وفي ذلك يقول
الفقيه العلامة سيدي محمد ابن الامام الشهيد سيدي عبد الله الهبطي رحمه الله
في منظومته التي نظم فيها اصحاب ابيه معذراً عن ابن عسكر المذكور ومشيراً
الى توهين ما قيل فيه

ومهم الشيخ الذي لا ينكر محمد اخو الدهاء عسكر
فان يكن اتى بذنب ظاهر فقلبه من الشكوك طاهر
رايته في النوم ذا بشارة وهيئة حسنة وشارة

وكان التقاء الجمع يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى عام ستة وثمانين وتسعمائة
قال في المنتقى وكان قدر المقاتلة خمساً واربعين درجة او اثنتين وخمسين درجة
على ما حدثني به بعض الموقنين . وتوفي عبد المالك في زوال اليوم المذكور
وباع الناس اخاه ابا العباس احمد المنصور كما سيأتي ان شاء الله قال في درة
الحجال فانظر لحكمة الله الواحد القهار اهلك الله ثلاثة ملوك في يوم واحد
وهم ابو مروان وابن اخيه محمد بن عبد الله والطاغية بستان واقام واحد وهو
ابو العباس المنصور ولما بلغت الهزيمة الى الطاغية الاعظم بعث الى المنصور
بعد استبداده بالملك ورجوعه لفاس كما سيأتي يلتبس منه الفداء لمن بقي في
يده من الاسارى ففداهم وجمع في ذلك اموالاً سنية وذكر بعضهم ان الاسارى
الذين وقع فداؤهم لما توجهوا الى بلادهم ووصلوا لملكهم قال لهم الطاغية لم
تأخذوا القصر والعرايش وتطاون قبل ان يصل ملكهم اليكم فقالوا له امتنع
من ذلك الامير الذي امرته علينا فامرهم فاحرقوا جميعاً . غريبة وفيها

مضحكة ذكر بعضهم ان النصارى دمرهم الله لما وقت عليهم الكائنة المذكورة
وفنى من فنى منهم راي اساقفتهم تلة الروم وخلاء البلاد اباحوا للعامة فاحشة
الزنى ليكثر التناسل ويخاف ما هلك منهم وراوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم
ملتهم اخزاهم الله ودمرهم .

ذكر الخبر عن سبب وفاة ابى مروان عبد الملك

وبقية اخباره

قال ابن القاضى كان سبب وفاة عبد الملك انه سقى سماً وذلك ان قائد
الأتراك الذي كان معه واسمه رضوان العليج بعث لبعض قواده ان يتلقاهم
بكعك مسموم هدية لعبد الملك وقت جوازهم عليه قصد بذلك قتله بعد اخذه
به مدينة فاس ليثبت لهم الملك فيها فلم يكمل الله مرادهم لما شاهدوا من
عظيم جيش المغرب وكثرته فكان ذلك سبب موته . ولما توفى حمل الى
مرآكش فقبر بها وكانت مدة خلافته اربعة اعوام ومن حجباه القائد رضوان
العليج ومن كتّابه محمد بن عيسى ومحمد بن عمر الشاوي وقضاته قضاة ولد اخيه
وكان يتزياً بزى الأتراك ويجري مجراهم في كثير من شئونه وكان يتهم بالميل
للاحداث وربما كان يظهر ذلك كما سلف ويلقب من الالقاب السلطانية
بالمعتصم وكان اخوه ابو العباس احمد المنصور خليفة له على فاس وما والاها
وكانت له فيه محبة تامة وكان يظهر انه وليّ عهده ويرشحه لذلك كثيراً وقد
وقفت على رسالة كتب بها اليه ابو مروان تدلّ على ذلك ونصّها بسم الله
الرحمن الرحيم من عبد الله المعتصم بالله المجاهد في سبيل الله امير المؤمنين
عبد الملك ابن امير المؤمنين ابى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى آيد
الله امره واعزّ نصره واسعد زمانه المبارك وعصره وابقى بمنه فخره من
املائه آيد الله وادام ذكره الى اخينا الاعزّ الاحظى باب احمد حفظه الله سلام

عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فاعلم أيّ لا أحبّ احداً بعد نفسي محبّي
لك ورغبتي في انتقال هذا الامر من بعدي إلّا اليك لا لغيرك غير أنّي نعتاد
منك التراخي في الامور حتّى أنّك لا تبالي بعظيم الامر ولا تعتبره الى ان
يتطرّق الى ما لا يتلاقى جبره من الامور التي تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا
الملك وتهدم اركانه ويبلع العدو مناه ورضاه ومراده من ذلك في هذا التراخي
اهمالك امر الجند الذي بالعرایش واغفالك له مع ما يترادف عليك في كلّ
ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة اليه من المؤنة والبارود والرصاص
الذي لا يستقيم لهم امر في مقاومة العدو دون ذلك وجعلت تقابل خطابهم
بالاهمال وعدم المبالاة الى الان ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من
يدك ابعث لهم مئونة عشرة ايام بينما نصل ان شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجونه
زايداً على ذلك مع ما عندهم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة
ولا تراخٍ ولا نقبل منك عذراً في هذه المسألة التي لا تحتاج للاهمال ولا بدّ
ولا بدّ وقد بلغنا أنّ صاحب النصارى بقرب اصيلاً بخمس عشرة مائة من النصارى
وتنمّيت ان لو حركتلك الهمة لاقتحامه في مكانه بجيش يكسيه اردية الصغار
ويرجع ساعة رويته الى عادته من الذلّ والفرار فانتبه من الغفلة واقترح
عين الانتباه واليقظة فإنّ الساعة لا تقضى إلّا الحزم والتشمير على ساعد الجند
والاجتهاد والعزم والسلام

ذكر الخبر عن اولى السلطان ابي العباس

مولانا احمد المنصور الذهبي رحمه الله

صفته كان رحمه الله طويل القامة ممتلئ الحدين واسع المنكين تعلوه صفرة
رقيقة ادعج اسود الشعر اكحل العينين ضيق الفلج براق الشيا جميل الوجه

مليح الصورة ظريف الترع لطيف الشمايل حسن الشكل كانت ولادته رحمه الله بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وآمه الحرّة مسعودة بنت الشيخ الاجلّ ابي العباس احمد بن عبد الله الوزكيتي الورزراتي وكانت من الصالحات حريصة على انشاء المفاخر راغبة في فعل الخير قال في المتقى وهي التي انشأت المسجد الجامع بحومة باب دكالة داخل مدينة مراكش وحبّست عليه اوقافاً عظيمة وكان ذلك عام خمسة وستين وتسعمائة وهي التي بنت جسر وادي أم الربيع وغير ذلك وتوفيت رحمة الله عليها سحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر في تمّ الآلف ومن المستفيض أنّها رثيت بعد موتها فسئلت ما فعل الله بها فقالت غفر لي بسبب أنّي كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت المودّن قد شرع في الاذان فردّدت علىّ ثيابي اعظاماً لذكر الله تعالى حتّى فرغ المودّن من اذانه فشكر الله لي ذلك فغفر لي ونشأ المنصور رحمه الله في عفاف وصيانة وكانت مخايل الخلافة لا يحمّ عليه من لدن عقدت عليه التاميم وكان والده المهديّ ينّبه على أنّه واسطة عقد اولاده قال في مناهل الصفاء حدّثني الشيخ المسنّ القائد ابو محمد مومن بن غازي العمريّ أنّ المنصور اقبل يوماً في حياة ابيه وهو صبيّ والمجلس غاصّ بالاكابر فاندفع يخرق الصفوف قال فصاح بي المهديّ اذاك وانا اصغر القوم فقال يا مومن ارفعه فسينفعك وينفع عقبك فابتدرت حمّله وكان كذلك فإنّ المنصور لما افضت اليه الخلافة كان القائد مومن بن غازي هذا عنده بالحضرة الرفيعة والمنزلة العلية قال ابو فارس ولما اخذ البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدّم استقدمه من فاس واوصاه بالمنصور جدّاً وقال له انّ الفائدة فيه او كما قال وكان المنصور يحدّث أنّه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم في النوم وانواره تشرق قال فوقع في نفسي ان اساله عن نصيبي من الخلافة فكاشفني عليه الصلاة والسلام بما في خاطري واجابني بما حقّق لي مقالها ثمّ اشار لي باصبعه الثلاثة الشريفة ضامّاً الابهام منها الى السبابة والوسطى وقال امير المؤمنين وحدّث الفقيه سفير الخلفاء العالم الوليّ ابو عبد الله محمد بن محمد بن عليّ

الدرعي الجزوليّ أنّه اجتمع ببعض اهل المكاشفة بمصر فساله عن السلطان محمد
 الشيخ المهديّ وعن اولاده فسميهم له واقتصرت على الكبار منهم ولم اذكر
 المنصور لانه كان اصغرهم سنّاً اذّاك فقال لي بقي منهم من لم تذكر فقلت احمد
 فقال لي ذلك واسطة عقدهم ووجه صفقتهم فكان الامر كذلك وقال الامام ابو
 زيد عبد الرحمن بن محمد القناريّ في كتابه الفوائد الجمة باسناد علوم الامة اخبرنا
 الفقيه ابو العباس احمد بن عبد الله الدغويّ صاحب الحسبة بتارودانت أنّه راى
 في منامه كأنّه في حلقة يسرد فيها صحيح البخاريّ بمحلّ من دار الخلافة بها وابو
 العباس المنصور يومئذ بها قبل ولايته قال فرايت في طرّة الكتاب وريّ الزند
 فكنت اتأمل معناه فالتفت فاذا انا برجل في ناحية انزل فيها على طنفسة فوقع
 في نفسي ان اساله فاتيته بالكتاب وقلت له يا سيدي ما معنى هذه الكلمة التي في
 طرّة هذا الكتاب فقال لي قل لمولاي احمد انا الذي اوريت زندك ما دمت
 على الحقّ فان عدلت عنه فانا برىء منك فقلت له ومن انت يا سيدي فقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظت قلم يعض الا قليل حتى ولي الخلافة
 وحدثت سيرته قال ابو زيد وناهيك بزند اوراء النبيّ صلى الله عليه وسلم وهذا
 مما يدلّ على أنّ ولاية الاسلام لا تنعقد الا بامر النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد
 اشتهرت المراءى بذلك. ويقرب من هذا ما ذكره صاحب كتاب ابتهاج القلوب بذكر
 مناقب سيدي عبد الرحمن المجذوب انّ الوليّ الصالح سيدي كدار المالكى راى
 النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلاً فشكى اليه اولاد مطاع لما راى ما هم عليه من
 الفساد في الارض فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم ياتيهم احمد فكان الامر
 كذلك اناهم بالقرب السلطان احمد المنصور فاخذهم وفلّ جمعهم كما سيأتي ان
 شاء الله وذكر في المنتقى قال مرض المنصور ذات مرّة في صغره مرضاً شديداً
 حتى ايس منه فرأت امه شخصاً في النوم وهو يقول لها زوريه سيدي الدرّاس
 بن اسماعيل نفع الله به فأنما اصابته عين فزورته آياه فعوفى واخبره من
 هذا النمط يطول تتبعها وجمعها

ذكر الخبر عن دولة المنصور

وأول أمرها

قد ذكرنا كيفية مبايعته قبل وأنها كانت عقب وقعة وادي المخازن في يوم الاثنين منسلخ جمادي الأولى عام ستّة وثمانين وتسعمائة واجتمع عليها أهل الحلّ والعقد ممن هنالك من الأعيان ثمّ لما أقبل المنصور من تلك الغزوة ودخل مدينة فاس العليا يوم الخميس عاشر جمادي الأخيرة من السنة المذكورة جدّت له البيعة بفاس ووافق عليها من لم يحضرها في حومة الوغا من الناس ثمّ بعث لمراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فادّعى الكلّ للطاعة وسارعوا للدخول فيما دخلت فيه الجماعة ولما تمتّ للمنصور البيعة بوادي المخازن كان أول ما بدىء به أن الجيش طلبوا منه أرزاقهم واستجروا منه إعطياتهم حسبما هي عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لأنهم جعلوها نهباً ولم يقسموها على الوجه الشرعيّ فصعب أخراجها منهم لعدم التعيين وجرة الناس على الغلول فسلم لهم فيها وسمحوا في رواتبهم وإعطياتهم وكان ذلك صالحاً وقطعاً للكلام فيما بينهم والأمر لله سبحانه

ذكر الخبر عن بعث المنصور للافاق

يخبرهم بهذا الفتح المبين

قال الفشتاليّ لما وقعت غزوة وادي المخازن وكتب الله فيها الكفر وأهله ونصر الدين واستوثق الأمر للمنصور وثمرت له البيعة بفاس كتب المنصور

لصاحب القسطنطينية العظمى ولسائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم
 بما انعم الله به عليه من اظهار الدين واهلاك عبدة الصليب واستيصال شوكة
 الروم ورد كيدهم في نحورهم فوفدت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنيين
 له على ما فتح الله له وعلى يديه وكان اول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر
 ثم تلتها ارسال طاغية برتقال اريك القائم بأمر الروم بعد هلاك ابن اخيه
 بستان بوادي الحازن فجاء بهدية عظيمة وضعوها يوم دخلوا لناس على العجلات
 والكراريط فعجب الناس منها عجباً بليغاً وكان تما فيها ثلاثمائة الف دقات من
 ريال الفضة واما الظرف والحوائج النفيسة فامر لا يحصى ثم ورد ارسال صاحب
 قشتالة بهدية عظيمة منها اليواقيت الكبار التي انتزعها الطاغية من تاج ابائه
 وربعية مملوءة من الدر الفاخر وغير ذلك وتكلم الناس فيما بين هدية برتقال
 وهديّة صاحب قشتالة ايّهما اعظم ولم يعرف اهل العقول التفاوت بين الهديتين
 ثم قدمت ارسال السلطان خاقان العثماني ومعهم هدية وهي سيف محلي لم يرقط
 مثله مضاء واصفى متاً ثم قدمت ارسال طاغية الافرنج ويقال لهم اليوم
 افرنصوص وبها يعرفون اليوم ومعهم هدية عظيمة ولم تزل الوفود متردفة ببابه
 والارسال تصبح وتمسي على اعتابه الى ان لم يبق احد ممن تشوق النفوس
 لمبعثه وحينئذ اطمأنت نفس المنصور وقرت عينه بتمهيد الامر له وفي جمادي
 الاولى عام سبعة وثمانين وتسعمائة مرض المنصور مرضاً مخوفاً وطال به حتى
 كادت الامور ان تختل ثم تداركه الله على يد الحكيم الماهر ابي عبد الله محمد
 الطبيب ولما استقل من مرضه احسن للطبيب المذكور ونشرت عليه من الخلع
 يوم خروجه ما لا يحصى وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً وفي ذلك يقول
 الفقيه اللغوي الاديب ابو عبد الله محمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة

تردى اذى من سقمك البر والبحر وفجّت لشكوى جسمك الشمس والبدر
 وبات الهدي خوفاً عليك مسهرا واصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر

فلما اعد الله تحتك التي افاق بها من غمة البدو والحضر
ترأت لنا الدنيا بزينة حسنها وعاد الى أيامها ذلك البشر
وصار بك الاسلام في كل بلدة يها ويدعو ان يطول لك العمر
وصحت لنا الامان بعد اغتالها وعاد الى الايناع اغصانها الحضر
ولا غرو ان صامت على سمط النداء اذا اغبر وجه الارض واحتبس القطر
بسيب ابي العباس انصت عجافها قديماً فخافت ان يعاودها الضر
لئن جدلت بيض المعالي فقد غدت نشيء الكمات البيض واللون اسمر
بقيت لهذا الدين تحمي دماره ويحميك رب العرش ما بقي الدهر

ذكر الخبر عن اخذه البيعة لولده وولى عهده

محمد الشيخ المامون وسبب ذلك

قال الفشتالي لما ابل المنصور من مرضه المذكور وعاد الى حاله من الصحة
اجمع راي اعيان الدولة واتفقت كلمة كبرائها على ان يطلبوا منه تعيين من يلي
الامر بعده ويكون ولى عهده وكان المنصور مهاباً فلم يقدر احد على مراجعته
في ذلك فاتفقوا على ان يكون البادي لذلك القائد مؤمن بن غازي الغمري لما
له من الادلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور
يا مولانا قد حفظ الله الاسلام بابلالك من هذا المرض وحفظ الدين بابقائك
عليه وقد بقى الناس في أيام سقمك في حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش ما لا
يخفى عليك فلو عينت لنا من ابنائك القساورة من تجتمع كلمة الاسلام عليه
ويشار بالخلافة اليه لكان اولى واليق بسياسة الملك وان ابنك الابن ابا عبد الله
مولانا محمد المامون حقيق بذلك وجدير بسلوك تلك المسالك لما فيه من
خلال الخير وخصال السيادة زيادة على ما هو عليه من التيقظ في اموره

والحزم في شؤنه وقد ظهرت للناس محاسن سيرته فاستحسن المنصور ذلك وأعجبه ما أشار به عليه وقال له سوف استخير الله في ذلك فإن كان من عند الله يرضيه فلبث المنصور أياماً يستخير ربه في ذلك وشاور من يعلم أهليته للمشورة من أهل العلم والصلاح فلما انقضت أيام الاستخارة واتضحت وجهة الاستشارة وتواطت العقدة على حسن تلك الإشارة جمع المنصور أعيان حاضرة مراكش وأعيان مدينة فاس وغيرهم من أشياخ القبائل ووجوه الناس من البوادي والخواضر وأوصى بالعهد لولده أبي عبد الله محمد الشيخ المامون المذكور وذلك في يوم الاثنين لليتين خلتما من شعبان وذلك عام سبعة وثمانين وتسعمائة وكان المامون أذاك خليفة أبيه على فاس ولم يحضر بيعته فبعث له المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويبايعه بحضرته ولم يقعه ما أخذ له من البيعة وهو غائب ولما بعث له للمجيء خرج المنصور خارج مراكش بعساكره ونزل بتانسيفت في الثاني عشر من صفر عام تسعة وثمانين وتسعمائة ولم يزل بعسكره ذلك متلوّماً منتظراً لقدم والده المامون إلى أن قدم في غرة جمادى الثانية من العام المذكور فكان يوم ملاقاتهما من عجائب الزمان ولما اصطفت جيش المامون وجيش المنصور ترجل المامون عن فرسه وأقبل حافي القدم فعفر وجهه بين يدي والده ثم قبل رجله والمنصور على فرسه بين الصّفين فدعا له بخير وأظهر الفرح بقدومه وكان المامون قد عباً جيشه تعبياً لم ير مثلها ورتّبهم ترتيباً حسناً في لباسهم وسائر أمورهم فسرّ المنصور بذلك وبعد أيام من بلوغه أمر به فاجلس في سرادقه الأعظم الذي لم يكن للملوك قبله مثله كما سيأتي وأمر أهل الحلل والعقد فازدحموا على تقبيل يده واقتضيت منهم الأيمان بمحضره وقام الشعراء فافصحوا عن وصف الحال وغمر المنصور الناس بالعطاء وكان ذلك يوماً مشهوداً وبعد أيام من ذلك أمر المنصور بالمامون أن يرجع لحضرة فاس فرجع ودخل المنصور لحضرته السعيدة مراكش حرسها الله تعالى

ذكر الخبر عن مخالفة الأمير داود بن عبد المومن

وشقّ العصا عن عمّه أبي العباس المنصور وما وقع في ذلك

قال الفشتالي لما وقعت البيعة للمامون وتكامل امرها ثار الرايس الاجلّ ابو سليمان داود بن عبد المومن ابن الامام المهديّ وهو ابن اخي المنصور وفرّ الى جبل سكساوة وشقّ العصا على عمّه ودعا لنفسه فانثالت عليه سرذمة من البربر وغيرهم ونجم امره وكثرت في اذان الرعيّة جمعجعتة فبعث له المنصور قائده الزعيم ابا عبد الله محمد بن ابراهيم بن القاسم بن بجة فساوشه القتال بجبل سكساوة فهزمه فهرب الى جبل هوزالة فتحزّبوا عليه وقويت بهم شوكته وبقي يشنّ بهم الغارات على اهل درعة الى ان ضافوا به ذرعاً فشكوا امره ايضاً للمنصور فبعث له قائده المذكور فلم يزل في مقاتلته الى ان شرده من هوزالة ففرّ منها الى الصحاري واستقرّ به الرحل في عرب الوداية من عرب الجنوب فلم يزل عندهم الى ان هلك عندهم عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وكفى المنصور امره والامر بيد الله سبحانه

ذكر الخبر عما وقع للمنصور مع السلطان مراد العثمانيّ

وما السبب في ذلك

قد ذكرنا قبل ان المنصور وردت عليه الارسال بالتهاني من ملوك الاقاليم وانّ ممّن وفد على ابوابه ارسال الملك العثمانيّ فقدموا عليه بهديّة سنّة وتشاغل المنصور عنهم وتركهم بحضرته مهملين وتاخّر عن جواب خاقان ملك القسطنطينيّة

العظمى السلطان مراد ابن السلطان سليم التركماني فعاظه ذلك ولم يزل الرايس على علوج وزير البحر يسعى بالمنصور عنده ويذكره ما وقع من ابيه من القدح في اماره الاتراك والطنن فيهم ويهين عليه امره الى ان اذن له في منازلته بالمغرب وياخذ عليه بافاقه الى ان يستاصل امر المنصور ويحمد جمرته فاخذ الوزير في التهيئة لذلك فبلغ الخبر للمنصور فارتحل لفاس وشحن الثغور وملا المراسي وكان على اهبة وكمال استعداد وبعث ارساله الى السلطان المذكور بهدية عظيمة وكان من ارساله القائد الانجب احمد بن ودة العمري والكاتب الشهير ابو العباس احمد بن علي الهوزالي فركبوا في البحر من ثغر تطاون فيناهم على تيج البحر في اثناء الطريق لقيهم وزير خاقان علوج المذكور وهو قاصد للمغرب بنية مضادة المنصور فلما راهم سقط ما بيده وايقن بخية مسعاه ففاوضهما فيما قصدها وايسهما من تدارك الامر وقال لهما ان الحرق قد اتسع على الراقع ولو كان لصاحبكم غرض في المسألة ما بقي اصحابنا بابوابه كالكلاب والبادي اظلم فلم يزل علوج بالقائد ابن ودة الى ان رده معه وترك الهوزالي يبلغ الرسالة ظناً منه انه صغير السن لا يحسن مخاطبة خاقان وابن ودة الذي عنده مظنة التدبير وكاله ومساجلة الملوك رده معه فلما بلغ الهوزالي الى خاقان اظهر من فراسته ولطافته في مخاطبته ما تحير منه خاقان واعتذر له عن تاخير المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مرسله ولا يفيد مغالبة بمخاطبه فقبل خاقان الاعتذار وقبل الهدية بقبول حسن وكتب مع الهوزالي لوزيره علوج بالرجوع عن منازلة المنصور فرجع به الهوزالي يطير فرحاً ولم يغيب عن علوج الا قدر الشهر ففرع علوج سنّ الندم واسف على ما فرط منه وبعث خاقان ارساله مع الهوزالي الى المنصور يلومه على التراخي في امور الملوك فلما وردت عليه الارسال احسن نزولهم وتلقاهم بالترحيب وردّهم مكرمين وبعث معهم الفقيه الامام قاضي الجماعة ابا القاسم بن علي الشاطبي والقائد الانجب عبد الرحمن بن منصور الشياظمي المريدي فلما وردا على خاقان فرح بهما كل الفرح وصنع

الشياطميّ كلاماً بليغاً اعرب فيه عن فضل الدواتين وقرّر فيه حقّ اهل البيت
واطرا المنصور غاية الاطراء وحضّ على اتحاد كلمة الاسلام وقرا ذلك على خاقان
يوم السلام عليه ففرح بذلك خاقان واهتزّ اسماعه ثمّ بعد ايام بعثهم خاقان
واحسن اليهم كلّ الاحسان ولما تكامل ذلك الغرض وصحّ جسم الملك
من ذلك المرض ورجعت الارسال في احسن الاحوال رجع المنصور
الى مرّاكش وفي خروجه من فاس خرج اعيان فاس ومشیخة العلم بها
وقرئ البخاريّ بين يديه على عادة الخلفاء رضى الله عنهم وكان ذلك عام
تسعة وثمانين وتسعمائة

ذكر الخبر عن فتحه لبلاد توات وثيراردين

وما وقع في ذلك

لما استقرّ المنصور بمرّاكش مرجعه من فاس وامن مقاتلة الترك طمحت
نفسه الى التغلب على بلاد توات وثيراردين وما انضاف اليهما من القرى
والمدائر اذ كان اهلها قد انفكت عنهم ايدي الملك منذ زمان ولم يستول
عليهم سلطان قاهر فسنح للمنصور ان يجمع بهم الكلمة ويردّهم الى امر الله
فبعث اليهما قائده احمد بن بركة وقائده احمد بن حداد العمريّ المعقلى في جيش
عظيم بلغوها عن سبعين مرحلة من مرّاكش وكانوا قد تلوموا الى اهلها
باعذار والدعاء للطاعة فامتنعوا من الاذعان واسترلّهم الشيطان فآزلوهم وقامت
الحرب بينهم على ساق وطالت المعركة بينهم اياماً فكّن الله منهم وحقّ عليهم
القول فاصبحوا كأمس الذاهب وانتهى الفتح للمنصور ففرح بذلك غاية
وقال في ذلك الشعراء قوافي وكان ذلك كلّ سنة تسع وثمانين وتسعمائة والله
عاقبة الامور

ذكر الخبر عن فتح المنصور لبلاد السودان

وكيفية ذلك وسببه

لما استولى المنصور على بلاد توات وتيكرارير واعمالهما تاقت همته لبلاد السودان لكون تلك البلاد مجاورة لبلاد السودان ولما اجمع امره على ذلك رأى ان يبدأ أولاً بمراسلة ملوك السودان ويدعوهم الى الطاعة فان اذعنوا كان ذلك هو المطلوب وكفى الله المؤمنين القتال وان امتنعوا يحكم الله بينه وبينهم فكتب الى سلطانهم سكية في شان معدن الملاحه الكائن بتغازى ومنه يجلب لسائر بلاد السودان ويقول له ان على كل حمل مثقالاً من الذهب عوناً لحيوش الاسلام فلما بلغت رسالته لسكية اظهر الامتناع من ذلك واني من مساعفته وكان المنصور لم يكتبه في ذلك حتى استقضى علماء ايلته واشياخ المفتوى بها فافتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من ان النظر في المعادن مطلقاً انما هو الامام لا لغيره وانه ليس لاحد ان يتصرف في ذلك الا عن اذن السلطان او نائبه وكانت الرسالة المتوجهة من انشاء الامام العلامة الاشهر مفتي الحضرة المراكشبة ابي مالك عبد الواحد بن احمد الشريف السجلماسي لان كاتب الانشاء ابا فارس عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الفشتالي كان مريضاً في الوقت ولما فرغ من انشائها بقى عليه الصدر فلم يدر كيف يقول في مخاطبة سكية ولا كيف يمدحه وهل يتوغل في المدح او يتوسط فكتب ابو مالك حين تحير في ذلك للمنصور بما نصه أيديكم الله ونصر اعلامكم ان مخاطبة هذا الرجل الذي هو في مرتبة ممالك الحضرة المولوية امر تلغم فيه لساني ووقف عن خوض لجته بنائي لان الناي عن هذه المحجة قد مد بيني وبينها حجاباً واغلق في وجهي باباً فلا آمن ان اقتحم من الوقوع في

تفريط او افراط وخير الامور لو علمتها الاوسط لكن لاسبيل الى معرفته الا
بعد علم الطرفين والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت ايديكم الله الصدر
لمن هو به متى اقعد وتحاميت عقده لمن هو له اعقد ابي فارس عبد العزيز
الذي افاضت عليه ابوابكم واطاعت له سبل هذا الخبر اقاركم والا قرعت هو اتف
لسان الحال سمى بقوله

يا باري القوس برى ليس يحسنه لا تنظم القوس اعط القوس باريها

والله ولي التوفيق

ذكر الخبر عن آل سكية ملوك السودان

واوليتهم

قال الامام التكروري في كتابه نصيحة اهل السودان آل سكية اسلمهم من
صنهاجة وملكوا كثيراً من بلاد السودان واول ملوكهم الحاج محمد سكية بضم
السين وسكون القاف بعدها ياء مفتوحة ثم تاء وكان الحاج محمد المذكور رحل
في اواخر المائة التاسعة الى مصر والحجاز بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة
قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فلقى بمصر الخليفة العباسي فطلب منه ان ياذن
له في اماره السودان وان يكون خليفة له هنالك ففوض له الخليفة العباسي
النظر في امور تلك الاقاليم وجعله نائباً عنه على من ورائه من المسلمين فأض
الحاج الى بلده وقد بنى رياسته على القواعد الشرعية وجرى على منهاج اهل
السنة ولقى بمصر الامام شيخ الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطي
فاخذ عنه عقائده وتعلم منه الحلال والحرام وسمع منه جملاً من اداب الشريعة

واحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه فرجع الى السودان فنصر السنة واحيا طريق العدل وحري على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر اموره ومال للسيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصاحت الاحوال وبرئ جسد الرشاد هنالك من الداء العتال وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لآئمة الدين محباً للعلماء مكرماً لهم غاية الاكرام يفسح لهم في المجلس ويوسع عليهم في العطاء ولم يكن في اياله كلها بوس ولا باس بل كانت رعيته في خصب عيش وامن سرب وفرض عليهم شيئاً خفيفاً من المغارم وظفهم عليهم وزعم انه ما فعل ذلك حتى استشار فيه الامام السيوطي شيخه المذكور ولم يزل على سيرته الموصوفة الى ان اخترمته المنية فقام بالامر بعده ولده داود فاحسن السيرة ما شاء وتبع طريقة ابيه الى ان مضى لسبيله ولحق بربه فقام بالامر بعده ولده اسحاق فعدل عن بعض سيرة ابيه وجدّه ولم يكن في اموره بالذميم وعليه انقرض ملك آل سكية وكان تحت طاعتهم من بلاد السودان مسيرة ستة اشهر والملك لله وحده وتصاريف الامور سبحانه اليه

ذكر الخبر عن مشاورة السلطان المنصور اصحابه

في غزو اسحاق سكية واقتحام بلاد السودان عليه

قال الفشتالي لما رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحاق سكية واعلموه بمقال سكية وامتناعه واحتجاجه بانه امير ناحيته وانه لا تجب عليه طاعته شاور المنصور اصحابه وجمع اعيان دولته والتقى اهل الراي والمشورة فاجتمعوا وكان يوم اجتماعهم يوماً مشهوداً وقال لهم المنصور اتني عزمت على منازلة امير كاغوا وصاحب السودان وبعث الحيوش اليهم لتجتمع كلمة الاسلام وتتفق ولان

بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش المسلمين ويشتد بها
ساعد كتيبة المؤمنين مع ان صاحب امرهم والمتولي عليهم اليوم ملكهم معزول
عن الامارة شرعاً اذ ليس بقرشي ولا اجتمعت فيه شرائط السلطنة العظمى فلما
نزل المنصور ما في كنانته وابدى ما في وطائه وفرغ ما في عيته من المرادة
سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء فقال لهم اسكنم انصائاً للراي ام ظهر لكم
خلاف ما ظهر لي فاجابوا كلهم بلسان واحد وراي متفق ان ذلك راي عن
الصواب بعيد وانه بمهانة عن الاراء السديدة ولا يخطر ببال السرقة فكيف بالملوك
فقال وما بيان ذلك فقالوا ان بيننا وبين السودان مهامة فيح يقصر عنه الخطا
وتحير فيها القطا وليس فيها ماء ولا كالا فلا يتأى السفر فيها لاعتساف طرقها
مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعراً وايضاً فان دولة المرابطين مع ضخامتها
ودولة الموحدين على عظمتها ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة احد
منهم لشيء من ذلك ولا تعرضوا لما هنالك وما ذلك الا لما راوا من صعوبة
مسالكها وتعذر مداركها وحسبنا ان تقتفى اثر تلك الدول فان المتأخر لا يكون
اعقل من الاول فلما قضى اولئك الاقوام كلامهم وابدوا اليه رايمهم وافهامهم
قال لهم المنصور ان كان هذا غاية ما استضعفتم به امري وقابلتم به رايي
فليس فيه حجة ولا ما يחדش فيما عندي اما قولكم بيننا وبينها محاربي مخوفة
ومفاوز مهلكة من جذبها وعطشها نحن نرى التجار على حالة ضعفهم وقلة
استعدادهم يشقون تلك الطرق في كل وقت ويخوضون في احشائها مشاة
وركباً ومثنى وفرادى وقط لم تنقطع ركاب التجار منها وانا اقوى اهبة منهم
ولاجيش همة وهيبة ليست للقوافل واما قولكم ان من قبلنا من الدول الطناتنة
لم تطمح ابصارهم لذلك فاعلموا ان المرابطين صرّفوا عنايتهم لغزو الاندلس
ومقاتلة الافرنج ومن بذلك الساحل من امم الاروام والموحدون اقتفوا سبلهم
في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بنى عبد
الواد بتلمسان ونحن اليوم قد انسدت ابواب الاندلس باستيلاء العدو الكافر عليه

جملة وانقضت عنا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر باستيلاء الترك عليها ثم ان اهل تلك الدول لو ارادوا ما اردنا لصعب عليهم ادراكه لان جيوشهم فرسان راحمة ورماتهم ناشبة ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة بالصواعق واهل السودان لم يكن عندهم الا الرماح والسيوف وهى لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة ففقاتلتهم سهلة وحربهم اسهل من كل شئ وايضا فان بلاد السودان انفع من افريقية فلاشتغال بها اولى من منازلة الاتراك لانه تعب كثير في نفع قليل فهذا جواب ما عرض لکم ولا يحملکم ترك الملوك الاول ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل فانه كم ترك الاول للاخر وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم فلما فرغ المنصور من خطابه استحسّن الحاضرون جوابه واستملحوا اشارته واستجادوا رايه وقالوا له طبقت المفصل والهمت الصواب ولم يبق لاحد ما يقول وصدق من قال عقول الملوك ملوك العقول فانفصل الجمع على البعث للسودان ومناهضة اهله ومتابعة المنصور في رايه قلت وقع في كلام المنصور امران يحتاجان الى مزيد بيان الاول ما قاله ان المثلّمين لم تكن لهم سلطنة على السودان والذي احفظه لابن خلدون وغيره انهم ملكوا غانة واستقضوا منها الامارات والجزية وغانة دار ملك السودان وهى مدينتان على صفّى النيل الثاني ما قال ان البارود حدث ولم يكن في تلك الدول الفارطة فالذي وقفت عليه في تاريخ حدوثه ما ذكره شيخ شيوخنا الامام الحافظ ابو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى رحمه الله في شرحه لمنظومته فيما جرى به العمل بفاس قال كان حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعماية حسبما ذكر بعضهم في تاليف له في الجهاد وانه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففترقع له فاعاده فاعجبه واستخرج منه هذا البارود وانه اعلم . والله سبحانه وتعالى يفعل في ملكه ما يريد

ذكر الخبر عن بعث المنصور جيوشه

الى السودان

لما اتفق راي المنصور مع اهل الشورى من اعيان دولته على البعث للسودان اختار من جملة جيشه وابطال جنده وانصاره ممن يعلم بخدمته ويعرف كفايته فهيا جيشاً عظيماً وتخيّر من الابل كلّ بازل وكوماء ومن الخيل كلّ عتيق وجرداء وعقد لواء الجيش لمولاه الباشا جودر فخرج في ذي عظيم وهيئة لم ير مثلها وكان خروجه من مراكش في السادس عشر من ذي الحجة عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وكتب المنصور الى قاضي تينبكت وهو الامام العلامة ابو حفص عمر ابن الشيخ محمود بن عمرايت الصنهاجي يامره بحضّ الناس على الدخول في الطاعة ولزوم حزب الجماعة ولم يزل جودر يتنقل من مراكش مرحلة فمرحلة الى ان بلغ عمائر تينبكت واحتلّ بعمالتها فاقى هناك اسحاقاً في جنوده وكان لما سمع اسحاق سكية بخروج الجيش وتوجهها اليه حشر جنوده وبعث في المدائن حاشرين وجمع جموعاً عديدة ويقال انه جمع مائة الف مقاتل واربعة الاف مقاتل وكان ذا اهبة واستعداد قال الفشتالي ولم يقنع بالجيوش التي جمع حتّى اضاف الى ذلك اشياخ السحرة واهل النفث في العقد وارباب العزائم والسيماظناً منه نجح ذلك وهيئات

السيف اصدق انباء من الكتب في حدّه الجمع بين الجبد واللعب
بيض الصفائح لأسود الصحائف في متونهنّ جلاء الشكّ والريب

فلما التقت الفيئتان نكص اسحاق على عقبه وانتثرت جموعه وفلّ غربه

والتحمت الحرب من لدن الضحى الى قسرب العصر فطحتهم رضى الحرب وصيرتهم كاعجاز نخل خاوية ونجا اسحاق بنفسه في قليل من حاشيته وكان جيش اسحاق اثما سلاحهم الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماسهم مع البارود شيئا ومن حينهم ولوا الادبار وحق عليهم البوار وحكمت في رقابهم سيوف جودر وجيوشه حتى كان اهل السودان ينادون نحن مسلمين نحن اخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وكان ذلك كله في السادس عشر من جمادى الاولى عام تسعة وتسعين وتسعمائة ولما فر اسحاق تبعه جودر بعد ان استولى على تينبكت وسائر ما يواليها من المدائن والقرى وبعث جودر للمنصور يخبره بالفتح وبهدية عظيمة فيها عشرة الاف مثقال ذهباً ومائتان من الرقيق وغير ذلك ولم يزل في مطالبة اسحاق الى ان قطع بحر النيل فقطعه جودر بجيوشه خلفه وتبعه الى ان حاصره في مدينة كاغوا وهى كانت دار ملك اسحاق ثم ان اسحاقاً راسل جودر يطلب منه الصلح على ضريبة يبذلها له في كل سنة واموال طائلة يودعها على ان يتركه في دار ملكه فاعجب ذلك جودر وبعث للمنصور يستشير في ذلك فانقب من ذلك المنصور وامتنع كل الامتناع وكتب لجودر على ظهر رسالته بخط يده اتمدوتى بما ان اتاني الله خير مما اتاكم بل اتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم ولنخرجهم منها اذلة وهم صاغرون وكان جودر حين طال عليه الحصار بكاغوا وسئم من طول الاقامة وشكى اليه الجيش وخامة تلك البلاد واستيلاء الاسقام عليهم رحل عنها راجعاً الى تينبكت ريثما ياتيه جواب المنصور عن ذلك الصلح الذي طالبه به اسحاق فخلق المنصور عليه حين رجع القهقرا وانقلب الى وراء وارسل الباشا محموداً وعزّل به جودر عن امارة الجيش وابقاه تحت امره فلما وافى محمود بمنازلة اسحاق والتضييق عليه في كاغوا رجعوا الى مدينة كاغوا وكان اسحاق لما تحوّل من استيلائهم عليها امر في خلال ذلك بتقلد الاقوات منها واخلاؤها فلما ضيقوا

عليه خرج هارباً من كاغوا وظنّ أنّهم لا يتبعونه فتجاوز كاغوا الى مدينة
كوكية وقطع النيل فقطعوا خلفه ولم يزالوا في اتباعه الى ان مات وادبرت
أيامه وانصرم سماط ملكه فانتظمت الممالك السودانية في سلك طاعة المنصور
ما بين البحر المحيط من اقصى ارض المغرب الى بلاد كَنُو المتضامة لبلاد برنو
فاذعن صاحب برنو وتتهى مملكة برنو الى بلاد النوبة المتضامة لصعيد مصر قال
الفشتالي فكلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط من ناحية
المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن من قبله والله يؤتي ملكه من
يشاء ولما فتح عليه ممالك البلاد السودانية حمل له من التبر ما يغير الحاسدين
ويحير الناطرين حتى كان المنصور لا يعطى في الرواتب الا النصار الصافي
والدينار الوافي وكانت ببابه كل يوم اربعة عشر مائة مطرقة تضرب الدينار
دون ما هو معدّ لغير ذلك من صوغ الافراط والحلى وشبه ذلك ولاجل
ذلك تقب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه ولما وافت المنصور وفود البشائر
بالفتح سرّ بذلك سروراً عظيماً وامر بالفرحات وتزيين الاسواق غداة
وعشية ثلاثة ايام واته الوفود من كل ناحية يهنونه على ما اتاه الله من النصر
المكين والفتح المين وقال الشعراء في ذلك وقام به في المحافل الخطباء ولما قيل
في ذلك ما انشده ابو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي فقال

جيش الصباح على الدجا متدقق	نبياض ذا لسواد ذلك ممحق
وكانه رايات عسكري التي	طلعت على السودان بيضاً تخنق
لاحت وأفقهم ليال كلة	كعمود صبح في الدجا يتدقق
نشرت لتطوى منه ليلاً دامسا	انحى بسيفك ذى الفقار يمزق
ارسلتهن جوائحاً وجوارحا	في كل مخلصها غراب ينعق
وسرت فكان دليلهن اليهم	مشحود عزمك والسنان الازرق
له من الليالى قد جلا احلاكها	نور النبوة من جبينك يشرق

صعقت بهنّ رعود نارك صعقة
سحقاً لاسحاق الشقي وحزبه
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه
جيش او اخره ببابك سيلة
لم يشعروا الا واسداد الرضى
كتب الاله على عداتك انهم
ظلت ملوك ساحلوك على العلا
ان يشبهوك ولا شبه يرى لكم
بشر ملوك الارض انك فاتح
ويعاصل لك ذو الفقار ففسرّق
دامت طيور السعد وهى غوادر
ما دام ذكر علاك في صحف الثنا
رجت لصيحتها العراق وجلق
فلقد غدا بالسيف وهو مطوّق
من جيش جودرك الغضنفر فيلق
عزم واوله بكاغوا محقق
ضربت عليهم من قتال وخذلق
قنص لسهمك غربوا او شرقوا
سفهاً وساوك في العلا لا يلحق
في الخلق اين من اللجين الزبيق
بالمشرفي على الولا ما اغلق
ما جمعوه وجامع ما فرقوا
بالمشتمى لك والمسرّة تنطق
اصل الفخار وكلّ ذاك ملحق

قال ابن القاضى في شرح درّة السلوك كان فتح السودان المذكور سنة تسع وتسعين وتسعمائة واليه اشرت بقولي من قصيدة

فتح معين هو تاريخه فاعجب لفتح ما له من جناح

ولقد هدى الله تعالى وارشد صاحبنا ابا الحسن على بن عبد الرحمن بن عمران السلاسى الى اخذ تاريخ الفتح المذكور بحساب النيم بعد اسقاط الفات الوصل وحرف التضعيف من قوله تعالى ولينصرنّ الله من ينصره انّ الله لقويّ عزيز الى قوله ولله عاقبة الامور وهو منزع لطيف وذكر لي ان الكوشى المفسر نصّ على انّ الاية من باب الاخبار بالمغيبات وكان محمود لما استوثق له الامر هناك بعث نصف جيشه مع هديّة للمنصور فيها من الذخاير ما لا يحصى وهى اثنا

عشر مائة مملوك من الجوارى والعلمان واربعون حملاً من التبر واربعة سروج من
الذهب الخالص واحمالاً كثيرة من اليا بلوز وكوز من الغالية وقطوط الغالية
وغير ذلك من الاشياء النفيسة ذات الاثمان العالية ولم يزل محمود هنالك خليفة
للمنصور وفي مقامه هنالك قبض على الامام العلامة الهمام علم الاعلام ابي
العباس احمد بن احمد بابا وعلى اهل بيته فحملوا مصفدين في الحديد لمراكش ومعهم
حريمهم ونهبت اموالهم وذخائرهم وكتبهم قال في بذل المناجحة سمعته يقول
انا اقل عشيرتي كتباً نهبت لي ستة عشر مائة مجلد وكان القبض عليهم اواخر
الحرم عام اثنين والف ووصلوا لمراكش في رمضان من العام بعده واستقروا
مع عيالهم في حكم التقاف الى وقت انصراف المحنة عنهم فسرّحوا في يوم الاحد
الحادي والعشرين من رمضان عام اربعة والف ففرحت بذلك قلوب المؤمنين
ولما ادخل ابو العباس بعد التخرج من السجن على المنصور وجده يكلم
الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم شملة مسدولة فقال له ان الله تبارك وتعالى
يقول وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب وانت قد
تشبهت رب الارباب فان كانت لك حاجة في الكلام فانزل الينا وارفع عنا
الحجاب فنزل المنصور ورفع الاستار فقال له ابو العباس اي حاجة لك في نهب
متاعى وضياع كتبى وتصفيدي من تينبكت الى هنا حتى سقطت من فوق الجمل
واندق ساقى فقال له المنصور اردناكى تجتمع الكلمة وانتم في بلادكم من اعيانها
فان ادعتم اذعن غيركم فقال له ابو العباس هلاً جمعت الكلمة بترك تلعسان وما
يلبها من البلدان فانهم اقرب اليك منا فقال له المنصور قال النبي صلى الله عليه
وسلم اتركوا الترك ما تركوكم فامثلنا الحديث فقال له ابو العباس ذلك زمان
وبعد قال ابن عباس لا تتركوا الترك ولو تركوكم فسكت المنصور ولم يجد جواباً
وانفض المجلس ولما سرح ابو العباس تصدى لنشر العلم وهرع الناس للاخذ
منه ولم يزل بمراكش الى ان مات المنصور لانه ما سرحهم من السجن حتى
شرط عليهم سكنى مراكش ولما مات المنصور اذن له ولده زيدان في الرجوع

الى بلاده فرجع اليها وكان يشوق لرويتها ويسكب العبرات عند ذكرها ولم
يئس من روح الله في العود اليها ومن شعره متشوقاً الى ما هنالك ومتشوقاً
الى تحصيل ذلك

ايا قاصداً كاغوا فعمج نحو بلدي وزمزم لهم باسمي وبلغ احبتي
سلاماً عطيراً من غريب وشائق الى وطن الاحباب رهطى وجيرتي
وعزّ اقارباً هناك اعزّة على السادة الاولى دفنت بقبرتي
ابي زيدهم شيخ الفضائل والمهدي وصنو بني عمي واقرب اسوتي
وسيفي بسيف الين سلّ لفقدهم على وهّد الموت ركني وعمدتي
ولا تنس عبد الله ذا النجد والندا فقد مدّ حزني فقد قومي وعشرتي
وشبان بيتي ساروا عن اخيرهم الى مالك الاملاك في وقت غربتي
فوا اسفاً مني وحزني عليهم فيا ربّ فارحمهم بوسع رحمتي

ولما خرج من مرّآكش بقصد بلده شيعه اعيان الطلبة فاخذ بعضهم بيده عند
الوداع وقرا قوله تعالى انّ الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد على ما
جرت به العادة من قرائتها عند وداع المسافر فيرجع سالماً فنزع ابو العباس
يده بسرعة وقال لا ردّني الله الى هذا المعاد ولا رجعي لهذه البلاد وسلّم عليهم
وذهب لبلاده بسلامة وامان رحمة الله عليه

ذكر الخبر عن وقعة المنصور بعرب الحلاط

وغيرهم من اهل ازغار وسبب ذلك

هؤلاء العرب من الحلاط ومختار وسفيان اصلهم من جشم القيلة المشهورة
وكانوا في القديم من شيعة بني مرين وهم الذين اقدموهم من المغرب الاوسط

وفيه كان قرارهم وكانت لهم في الدولة المرينية صولة ومرتبة فلما ادبرت أيام
بنى مرين واستولى على ملكهم ابو عبد الله محمد الشيخ المهدي انحسروا اليه
واظهروا الخدمة والنصيحة له فلما جاء ابو حسون المريني بالأتراك حسبما
شرحناه قبل اوقعوا الهزيمة على المهدي من ابي حسون كما سلف خلفهم عن
الجندية ووظف عليهم الخراج ومضى اسمهم من ديوان الخدمة ونقل اعيانهم
لمراكش واتخذهم رهائن عنده ولم يزل الامر على ذلك الى أيام المنصور فرأى
مقاتلتهم في وادي الحازن وابلاهم فيه البلاد الحسن فاختار نصفهم للجندية
وابقى نصفهم الاخر في غمار الرعية ونقلهم لازغار فسكنهم فيه فعموا في البلاد
واكثروا فيها الفساد ومدوا ايديهم لاولاد مطاع قهيوهم وضيقوا بنى حسن
فكثرت الشكاية بهم للمنصور فضرب عليهم سبعين الفاً فلم يزيدوا الا شدة فبعث
لهم ليرسلوا طائفة لتكرارين فامتنعوا من ذلك فبعث القائد موسى بن ابي
جمادة العمري لهم فانتزع الخيل منهم وابقاهم رجالة ثم حكم فيهم السيوف
فمزقهم كل ممزق ومن ثم اخذت شوكتهم ولانت للمغامر قاتهم

ذكر الخبر عن تجديد المنصور البيعة لولده

محمد الشيخ المامون

وفي شوال عام اثنين وتسعين وتسعمائة جدد البيعة لولده ولي عهده محمد
الشيخ المامون على اخوته خصوصاً لانهم كانوا في البيعة الاولى قبل البلوغ فاراد
ان يستوثق له من اخوته بعد البلوغ حتماً لمادة النزاع بينهم فارتحل المنصور من
مراكش لتامسنا وبعث الباشا عزوز بن سعيد الوزكيتي لياتي بولي عهده من
فاس فتوافى العضدان بتامسنا وبأشر المنصور اخذ البيعة له بنفسه وحضر الاعيان
واهل الحلال والعقد واحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع

الفهرّي رضى الله عنه وهو من ذخائر الحلفاء واحضر الصّيحّين البخاريّ ومسلم وقرّئ ظهير البيعة فتولّى قراتها الفشتاليّ وبجنبه القاضي ابو القاسم الشاطبيّ يفسّر ما شكل في لفظ الظهير ولما اخذ البيعة اخر اولاده غد يومها فكتبوا خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك ورايت في بعض رسائل زيدان بن المنصور وقد الم بهذه البيعة فقال اتّي حضرت بيعة محمد الشيخ صاحب المغرب وحضر اولاد السلطان فاستحلفهم له الا انا فاته رضى الله عنه قال فلان لا يخاف ولا يحتاج اليه فامر به بفعله وعظم على ذلك اخوتي وظهرت في وجوههم الكراهية ولما فرغ المنصور من تجديد البيعة راي ان يرشح كلاً من اولاده للامارة ويقسم بينهم البلاد حتّى لا يبقى في نفوسهم احن ولا تنطوي قلوبهم على ضغائن فعقد لابي فارس شقيق المامون على السوس وسائر عمائر وعقد لابي الحسن على مكناسة وما والاها وعقد لزيدان على بلاد تادلا ثمّ عكس الامر اقتضاه فنقل زيدان لمكناسة ونقل ابا الحسن لتادلا ولم يزل امرهم على ذلك

ذكر الخبر عن ثورة الناصر بن الغالب بالله

على عمّه ابي العباس المنصور وما وقع في ذلك

كان الناصر في حياة ابيه الغالب خليفة على تادلا ونواحيها ولما توفّي ابوه قام بالامر اخوه المتوكّل كما استوفينا شرحه قبل هذا قبض المتوكّل على الناصر فاعتقله ولم يزل مصتقلاً مدّة خلافته ولما انتزع المعتصم الملك من يد المتوكّل كما اسلفناه فيما مرّ سرّحه من اعتقاله واحسن اليه ولم يزل تحته في ارغد عيش فلما توفّي المعتصم يوم وقعة وادي الخازن فرّ الناصر لاصيلا وكانت بيد الكفرة ثمّ عبر عنها البحر لجزيرة الاندلس فكان عند طاغية قشتالة مدّة الى ان بعته

الطاغية الى مليية وزين له الثغاف لتتفرق كلمة الاسلام فخرج الناصر لمليية
ونزل بها للثالث من شعبان عام ثلاثة والـ فقتسمعت به الغوغاء وسقط الناس
وهمجهم فاقبلوا اليه يزقون وسارعوا نحوه يهرعون فكثرت جموعه وتوافرت
عساكره وشيوعه فخرج منها قاصداً لتأزى فدخلها واتته القبائل المجاورة لها
كالبرانس وغيرهم فنالقوا عليه وتماثلوا على اعزازة ونصره ولما دخل تأزى
طلب اهلها بالمكس وقال لهم ان النصارى يغرمون حتى البيض ولما سمع المنصور
بخبيره احزنه امره وتخوف منه غاية لان الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوفت
له العيون لميل القلوب عن المنصور لشدة وطائه واعتسافه للريعة قال في
ابتهاج القلوب في ترجمة الولي الصالح ابي الحسن علي بن منصور البوزيدي
انه كان يوماً سائراً مع اصحابه وهو راكب على بغلة فقال لهم يا فقراء اتسمعون
ما تقول بغلتي انها تصبح بالنصر لمولاي الناصر وكذلك الحجر والشجر واني
ارى غير ذلك فكان الامر كما قال فقد اهتز كل شيء لقيام مولاي الناصر ثم
قتل قريباً ولم يتم له الامر ثم ان المنصور بعث لهم جيشاً وافراً فهزمهم
الناصر واستوثق له الامر فامر المنصور ولي عهده بمنزلته فخرج اليه في
تعبية حسنة وهيئة تامة فلما التقى الجمعان كانت الدائرة على الناصر فهرب على
تأزى وفر هارباً فاحتل بلجاية بليدة من عمل جبل الزبيب فلحق به ولي
العهد فلم يزل في مقاتلته الى ان قبض عليه فقتله وقطع راسه وحمل لمراكش
وكان ذلك عام خمسة والـ وذكر الشيخ ابو علي اليوسفي في المحاضرات ما
نصه لما قام على المنصور ابن اخيه الناصر قال سيدي احمد بن بلقاسم الصومعي
ان الناصر يدخل تادلا بمعنى دخول المالك فلما بلغ الخبر الى سيدي محمد
الشرقي قال مسكين بابا احمد راي راس الناصر يدخل تادلا فظنه الناصر فهزم
الناصر وقطع راسه وحمل الى مراكش فدخل تادلا في طريقه ولما قتل الناصر
فرح بذلك المنصور وجاءته الوفود بالتهنئة وكتب الفتح لسلطان مكة وهو
السلطان حسن بن ابي انمي والشيخ العارف بالله سيدي احمد البكري الصديقي

والامام بدر الدين القرافي وغيرهم يعلمهم بما منحه الله من الفتح والعز
والظفر وقال في ذلك الكاتب البليغ ابو عبد الله محمد بن عمر الشاوي

تهنأ امير المؤمنين فقد جرت لسطوتك الاقدار جرى السوابق
اضاعت بك الايام واحلوك على عدوك واريجت رؤوس الشواهد
وذلك الذي قد خيب الله سعده تردى فلم تنفعه نصرة مارق
فكان كما قد قيل لاكن راسه اتي سابقاً والرجل ليست بسابق

واشار بذلك الى قول بعضهم في الوزير ابن الفرس حين قتل وصلب وقد
راه منكوس الراس

لقد طمح المهر الجموح لغاية تقطع اغناق العقاق السوابق
جرى فجرت رجلاه لاكن راسه اتي سابقاً والرجل ليست بسابق

ذكر الخبر عن بناء المنصور للبديع

ووقعه وسبب ذلك

قال في مناهل الصفا كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وانفاقه
فيه جلائل الاموال ونفائس الذخائر هو انه اراد ان تكون لاهل البيت به
مأثرة وشفوف على دولة البربر وغيرهم من المرابطين والموحدين ومن
بعدهم من بنى مدين فكان كل من اهل تلك الدول ابتهى بناء يحى به ذكره
ولم يكن لاهل البيت في ذلك المعنى شئ تزداد به حظوتهم مع انهم احق الناس
بالجد الاصيل والسودد الاثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف اهل البيت لان البناء
كما قيل في فوائده

همّ الملوك اذا ارادوا ذكرها من بعدهم فبالسنّ البنيان
انّ البناء اذا تعاضم شأنه اضحى يدلّ على عظيم الشأن

ولما عزم على الشروع فيه احضر اهل العلم ومن يهتم بالصالح فتحنوا اوان
الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع في تاسيسه في شوال خامس
الاشهر من خلافته عام ستّة وثمانين وتسعمائة واتصل العمل فيه الى عام اثنين
والف ولم يتخلل ذلك فترة وحشر له الصنّاع حتّى من بلاد الافرنجة فكان
يجتمع كلّ يوم من ارباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق كثير حتّى كان يباه
سوق عظيم يقصده التجّار ببضائعهم ونفائس اعلافهم وجلب له الرخام من
بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزناً بوزن وكان انّصور قد اتّخذ معاصير
للسكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرها حسب ما ذكره الفشتاليّ في مناهل الصفا
وامّا جيبه وجيره وباقي انقاضه فاتّما جمعت من كلّ ناحية حتّى أنّه وجدت بطاقة
فيها انّ فلاناً دفع صاعاً من جبر حمله من تينبكت وظّف عليه في غمار الناس
وكان المنصور مع ذلك يحسن للاجراء غاية الاحسان ويجزل صلة المعلمين بالبناء
ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بمؤنة اولادهم كي لا تشوّق نفوسهم وتشعب
انظارهم وهذا البديع دار مرّبعة الشكل وفي كلّ جهة منها قبة رائقة الهيئّة
واحتمّ بها مصانع اخر من قباب وقصور وديار فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته
ولاشك ان هذا البديع احسن المباني واعظم الصنائع يقصر عنه شعب بواق
وينسى ذكره غمدان ويخس الزمراء والزاهرة ويزري بقباب الشام واهرام
القاهرة وفيه من الرخام المجزّع والمرمر الابيض المفضّض والاسود وكلّ رخامة
طلّى راسها بالذهب الذائب وموّه بالنضار الصافي وفرشت ارضه بالرخام
العجيب النحت الصافي البشرة وجعل في اضعاف ذلك الزلاج المتّوّع التلوين
حتّى كأنّه خمائل الزهر او برد موشى واما سقوفه فتجتم فيها الذهب وطلبت
الجدارات به مع بريق النقش ورائق الرقم بخالص الحيص فتكاملت فيه المحاسن

واجرى بين قبائه ماء خيراسن وبالجملة فإن هذا البديع من المباني المتساهية
البهاء والاشراف المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التي هي جنة الدنيا وفنتة
الحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف وفي ذلك قيل

كل قصر بعد البديع يذم فيه طاب الخبي وفيه يشم
منظر رائق وماء نير وثرى عاطر وقصر اشم
ان مرآكشاً به قد تناهت مفخراً فهى للعلا الدهر تسم

وفيه الاشعار المرقومة في الاستار والايات المنقوشة في الحشب والزليج
والحيص ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويهر العقول وعلى كل قبة ما يناسبها
وفي بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها وتتبع ذلك يطول لكن لا بأس
ان نلم بشيء هنا بمثابة من ذلك الخوض ونحوض في بحار تلك البديع بعض
الخوض اذ في ذلك عبرة لمن اعتبر وترويح القلب بكيفية فعل الدهر بمن غير
فمن ذلك ما نقش خارج القبة الحسينية قال في نفح الطيب واتما سميت
بالحسينية لان فيها خمسين ذراعاً بالعمل من انشاء الكاتب البليغ ابي فارس
الفشتالي على لسان تلك القبة المذكورة

سموت وخرّ البدر دوني وانحطّ واصبح قرص الشمس في اذني قرطا
وضعت من الاكليل تاجاً لمفرق ونيطت الى الجوزاء في عنقي سمطا
ولاحت باطواقي الثريا كأنها نثر جمان قد تتبعه لقطا
وعدّيت عن زهر النجوم لآتي جعلت على كيوان رجلى منحطا
وأجريت من فيض السماحة والندا خليجاً على نهر المجرة قد غطا
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت اليه وفود البحر تغرق ما انطا
تنفضض مسا بين الغروس كأنه وقد رقرقت حصابؤه جبة رقطا

وعين تجرّي من حمائلها صرطا
جنا الزهر لاح في ذوائها وخطا
كما مال نشوان تشرب اسفنتا
سواء لديها الغيث اسكب ام ابطا
بحاراً غدا عرض البسيط لها شطا
هي الشمس لا تخشى كسوفاً ولا غمطا
سنى البدر يبدو من نجوم السما وسطا
على جسمها الفضى نهراً هالطا
نقوشاً كأن المسك ينقطها نقطاً
فأتي لها في الحسن درتها الوسطا
عذارى نضت عنها القلائد والريطا
واجل في تنعيمها النحت والخرطا
قواير افلاك السماح بها ضغطا
فاكنافه رحل العلا والهدى مطا
تطوف بمغناها امانى الورى شرطاً
حنايا القباب لا الكتيب ولا السقطا
ووسد فيه الوشى لا الصدر والارطا
اذا مازجته السحب عاد بها خلطا
الى كل اتف عرف غيره قسطا
او اوين كسرى الفرس تغطه غبطا
على خير من يعزى كخير الورى سبطا
وترسى سفائن العلا حيثما حطاً
يفاق هامات العدا حيثما خبطاً
ذمائب ارض الزنج من ضوئها شمطاً

حواليه من دوح الرياض خرائد
اذا ارسلت لدى الفروع وفتحت
يرتجها من النسيم اذا سرى
يشق رياضاً جادها الجد والندا
وسالت بسلسال اللجين حياضها
تطلع منها وسط وسطاء ديمة
حكمت وجباب الماء في صبياتها
اذا غزلتها الشمس القى شعاعها
توسمت فيها من صفاء اديمها
اذا آتست بيض القباب قلادة
تكفنى بيض الدما فكاتها
قدود ولاكن زادها الحسن عريها
نمت صعداً تيجانها فتكسرت
فيالك شأواً في السعادة هائل
وكعبة مجد شادها العز فانبورت
ومسرح غزلان الصريم كناسها
فلكن به ما طاب لا الاثل والخطا
تراه من المسك الفتيت مدبرا
وان باكرته نسمة سرى
اقرت له الزهراء والخلد وانتقت
خباب رواق المجد فيه مطباً
امام يسير الدهر تحت لوائه
وفتح اقطار البلاد بفيلق
تطلع من خروانه الشهب فانتشت

كتاب نصر ان جرت لملمة
اذا ما عقدن راية علوية
فما للسناء تلك الالهة انما
يطاوع ايدي المعلّوات عنانها
يد لامير المومنين بكفها
ادار جدارا للعلا وسرادقا
جرت قبلها الاقدار تسبقها فرطا
جعلن ضمان العز في عقدتها شرطا
سنا بكها انفت مثالا بها خطا
فيقتاض من فيض الزمان بها بسطا
زمام يقود الروم والفرس والقبطا
يحوط جهات الارض من رعيه حوطا

وقال ايضا مما كتب بداخل القبة المذكورة

جمال بدائي سحر العيونا
وقد حسنت نقشي واستطارت
واطلع سمكي الاعلى نجومها
وجوي من دخان النداء القى
علوت دوائر الافلاك سبعا
فصنت من الالهة والحنايا
تكفني حياض مايجات
يعيد جلها الطرف انفسا
تدافع نهرها نحوي فلما
ترى شهب السماء بهن غرقا
وقد نشر الاحباب على سماها
فخرت وحق لي لما اجتبانى
هو المنصور حائر خطل سبق
وليث وغا اذا زار امتعاضا
اذا امت كتابه الاعادي
ورونق منظري بهر الجفونا
سنا يغشى عيون الناظرينا
ثواقب لا تغور الدهر حيننا
على الارض الغياهب والدجوننا
لذلك الدهر ما الفت سكوننا
اساور والخلال والبرينا
امامى والشمائل واليميننا
وفيها الفلك والكور والسفينا
تلاقى البحر في جري دفيننا
فتحسبها بها الدرر المصونا
لثالي تزدري العقد الثينا
لمجلس امير المومنيننا
وباني المجد بينا مكنينا
يروع زائره هندا وصينا
بعثن برعبه جيشا كميننا

يدير عليهم من كل حرب تدقمهم رحي او مجنوناً
امام بالمغارب لاح شمساً به الشرق اكنسى نورا مينا
بقيت بذى القصور الغرب دراً يلوح بافقهن مدا السينا
تحف بكم عواكف عند بابي ملائكة كراما كاتينا
لك البشرى امير المؤمنين ادخلوها بسلام امنينا

وقال ايضاً مما كتب ببوها بمرمر اسود في بياض

لله بهو عز منه نظير لما زهى كالروض وهو نظير
وصفت نقوش حلاه رقص قلائد قد نضرتها في النحور الحور
فكانها والتبر سال خلالها وشى وفضة ترها كافور
وكان ارض قرارها ديباجة قد زان حسن طرازها تشجير
واذا تصدع نده نوراً ففى انماطه نور به مسطور
شاو القصور قصورها عن وصفه سنان فيه خورنق او سدير
فاذا اجلت اللحظ فى جناته ترتد وهو بحسنه مسحور
وكان موج البركتين امامه حركات سجع صافحته دبور
صفت بصفتها تماثل فضة مثل النفوس يحسنها تصوير
فتدير عن وصف الزلال معللا ليسرى الى الارواح منه سرور
ما بين اساد يهيج زائرها واساود يسلو لهن صفير
ودحت من الانهار ارض زجاجة واطله فاك يضئ منير
راقت فمن حصباؤها وفواقع يطفو عليها اللولو المشور
ياحسنه من مصنع فيهاؤه باهى نجوم الافق وهى تنور
وكانما زهر الرياض لجنبه حيث التفت كواكب وبدور
ولدى الاسى تخير وصفه فخر الورى وامامها المنصور

ملك اتاف على الفراق قد رتبته
قطب الخلافة تاج مفرق دولة
وجرى الى اقصى العراق لرعاها
نجل النبي ابن الرضى سليل من
بحر الندى لانه متموج
طود يخف لحمله ووقاره
دامت معاليه ودام مجده
وتعاهدته من الفتوح بشائر
لا زال منزل سعده يرثاه
وجرت به مدحا حيا مرسدة
واظله فوق السماك سرير
رميت بمحلفها التهام الكور
جيش على جسر الفرات عبور
حقن الدماء وعف وهو قدير
سيف العلا لانه ممطور
ولجيشه يوم التزال بشير
طوق على جيد العلا مزور
يغدو عليه بها المسا وبكور
نصر يدق لواء المنشور
وادار كاس الانس فيه سمير

قال ايضا وكتب في بعض المباني البديعة ما نصه

معاني الحسن تظهر في المباني
مشاقه في صفات الحسن اصبحت
بكل عمود صبح من لجين
مفصلة القدود مثلثات
تردت سائر المحاسن يزري
وتعطو الخيزرانة من دماها
لمجدك تنتمى لآكن نماها
يدين لك ابن ذي وزن ويعنوا
غدت حرما ولاكن حل فيها
مباني بالخلافة اهلالات
هي الدنيا وساكنها امام
ظهور السحر في حديق الحسان
تمت بها المعاني للغواني
تكون في استقامة خوط باني
مواصلة العناق من التداني
بحسن السابري الحسرواني
بسالبة القطيع البرهماني
الى صنعاء ما صنع اليدان
لهما غمدان في ارض اليمان
لوفدكم الامان والاماني
بها يتلو الهدى السبع المثاني
لاهل الارض من قاص وذاني

قصور ما لها في الارض شبه وما في المجد للمنصور ثان

وقال ايضاً فيما كتب على المنصورية المطلعة على الرياض المرتفعة على القبة الخضراء
وكان انشاؤها عام خمسة وتسعين وتسعمائة

باكر لدى من السرور كئوسها وارض النديم اهلة وشموسا
واخرج على غرق المنير سماءها تاق الفراق في حياى جلوسا
واذا طلعت باوجها قر العلا لا ترتضى غير التجوم جليسا
شرف القصور بريقها لما اجنلت منى على بسط الرياض عروسا
واغتظت بالمنصور احمد ضيعها ورداً تحير من بديع خيسا
ملك يرى كل الملوك ممالكا لعلاء والدنيا عليه خيسا
دامت وفود السعد وهى عواكف تصل المقييل لدى والتعريسا
وهناك في شرف الخلافة دولة تانى بروتها طلائع عيسا

وقال بعض الكتاب تما طرز به الاستار المذهبة المحكمة الصنعة لتستر بها النواحي
الاربعة من القبة الحسينية وتسمى هذه الاستار عند اهل المغرب بالخائطي

ففي الجهة الاولى

متع جفونك في بديع لباس وادر على حسنى حمى الكاس
هذه الربا والروض من جرعائها على اهتدى بالعارض البجاس
انى لروض ان يروق بهاؤه ملى وان يجرى على مقياس
فالروض تغشاه السوام وانما تاوي الى كنى ظباء كناس

وفي الجهة الثانية

من كل حسن كالعقبيب اذا انتى تزي بعض البانة المياس

ولقد نشرت على السماء ذوائبي ونظرت من شرز الى الكناس
وجررت ذيلي بالمجرة عابثا فخراً بمخترعي ابي العباس
ما نبط مثلي في القباب ولا ازدهت بفتى سواء مراتب وكراس

وفي الجهة الثالثة

ملك تقاصرت الملوك لعزه ورماسهم بالذل والانغاس
غيث المواهب بحر كل فضيلة ليث الحروب معسر الاوطاس
فرد المحاسن والمفاخر كلها قطب الجمال اخو النداء والباس
ملك اذا وافي البلاد تراجعت منه الوهاد بعاطر الانفاس

وفي الجهة الرابعة

واذا تطلع بدره من هالة يغشى سناه نواظر الجلاس
ايسامه غرر تجلّت كلها ابهى من الاعياد والاعراس
لا زال للمجد السنن يشيده ويقيم مغناه على الاساس
ما مال بالغصن النسيم وحييت درر السندا في حيده المياس

وقال بعض الكتاب كما نقش في عضادتي باب من الابواب

يا ناظراً بالله قف وتامل وانظر الى الحسن البديع الاكمل
واذا نظرت الى الحقيقة فلتقل السر في السكّان لا في المنزل

وقال الكاتب البليغ ابو فارس عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الفشتالي ممّا
نقش ببعض الابواب

هذي وفود السعد نحوي تنمى وطلائع البشرى لبابي ترمي

وسمت الى عفان عرفك مثل ما يسمو الحجييج الى سقاية زمزم
حطت بمصرع السعود بشائر لاحت على الشرفاء مثل الانجم
اولى بضع ان تقول ولا تبلى فبديع احمد جنة المنعم

قال الفشتالي لما عرضتها عليه استحسناها الا انه كره لفظة الجنة وتغير عليها
كثيراً وكان الفراغ من بناء البديع عام اثنين والف وفي تاريخه يقول الوزير
الفقيه الاديب ابو الحسن علي بن منصور الشياظمي وهو مما نقش في باب
الرخام احد ابواب البديع

الحسن لفظ وهذا القصر معناه يا ما اميلح مرءاه وابهاه
فهو البديع الذي راقى بدائعه وطابق اسم له فيه مستاه
صرح اقيمت على التقوى قوائمه ودل منه على التاريخ معناه
ولاح ايضاً وعين الحفظ تكلؤه تاريخه من تمام قل هو الله

وقال الوزير المذكور ايضاً فيما نقش على احد ابواب البديع

باب اتى كبراعة استعمال وكاتما القصر المشيد التالي
ولذلك سمي بالبديع وجاء بالاغراق والتجنيس والايغال
واتى التمام فقلت من تاريخه بيت بلا عقد ولا اشكال
صرح على التقوى من الله ابتى في طالع للسعد والاقبال

وقال ايضاً فيما كتب بنباح قبة الزجاج

ان شئت تاريخ كمال البديع فقل ايوان احمد ايوان السعادات

وقال ايضاً في تمام البديع مبيّناً له

يا مالكا ما مكنه فيمن ملك كطلوع الفجر من بعد الحلك
تمّ هذا القصر فاسكنه على حسن حال بدوام الملك لك

قال في نفع الطيب اخترع المنصور من الصنایع ثلاثة اشياء فحاجت غريبة
الشكل بديعة الحسن وهي البديع والمسرة والمشتهى ومّا قال المنصور في
ذلك مورّخاً

بستان حسنك ابدعت زهراته ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرة يشقى يا حسنه زمانه فالمشتهى

والذي ذكره صاحب كتاب البيان المعرب عن اخبار الغرب وهو الشيخ ابو
عبد الله بن عذاري الاندلسي حسبما رايته في السفر الثاني انّ اول من انشا المسرة
التي بظاهر جنان الصالحة عبد المومن بن عليّ كبير الموحدين قال وهو بستان
عظيم طوله ثلاثة اميال وعرضه قريب منها فيه كلّ فاكهة تشهى وجلب اليه
الماء من اعماق واستبطن له عيوفاً كثيرة قال ابن اليسع وما خرجت انا من
مرّاكش في سنة ثلاث واربعين وخمسماية الا وهذا البستان الذي غرسه يبلغ
مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين الف دينار مومنية بحسب رخص الفاكهة بمراكش
ولعلّ المنصور جدّد معالم المسرة بعد اندراسها وافاض سجال الحياة على ميت
اغراسها وكان المنصور يفخر بالبديع كثيراً وبنوه بعده كذلك وفي ذلك يقول
ابو فارس الفشتالي

هذا البديع يعزّ شبه بدائع ابدعتن به فجاء غريباً
اظنى الغزاة حسنه حسداً له ابدى عليه للاصيل شحوباً

شيدتهن مصانعاً وصنائعاً انجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت في كلّ الفخار لغاية ادركتهن وما مسسن لغوبا
فانعم للملك فيه دام موقراً تجنى به فسن النعيم وطيباً

ولما أكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق برده وتطويق حلته صنع مهرجاناً عظيماً ودعا الاعيان والاكابر فقدم لهم من ضروب الاطعمة وصنوف الموائد وافرج عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز ما لم يعهد منه قبل وكان ممن دخل في غمار الناس رجل من البهاليل ممن كانت له شهرة في الوقت بالصلاح فقال له المنصور عابثاً به كيف رايت دارنا هذه يا فلان فقال له اذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب فوجم لها المنصور وتطير منها وقد ظهر مصداق ذلك على يد السلطان المظفر مولانا اسماعيل بن الشريف فانه امر بهدمه عام تسعة عشر ومائة والفرق لموجب يطول شرحه فهدمت معانه وبدلت مراسمه وغيّرت محاسنه وفرّق جموع حسنه وعاد حصيداً كان لم يغن بالامس حتى صار مرعى للمواشي ومقيلاً للكلاب ووكرأ للبوم وحقق على الله ما رفع شيئاً من الدنيا الا وضعه ومن العجائب انه لم تبقى بلد بالمغرب الا ودخلها شيء من انفاض البديع ولقد تذكرت بهذا ما حكاه بعض مؤرخي الاندلس ان الزاهرة التي بناها المنصور ابن ابي عامر وهي من عجائب الدنيا في اتقان البناء مر عليها في أيام المنصور ابن ابي عامر بعض اهل البصائر وهي في غاية العمران والازدهاء ساكنها فقال يا دار فيك من كلّ دار فجعل الله منك في كلّ دار قال فضرب الدهر ضربانه وسلط عليهم ايدي العدوان فهدمت وتفرقت محاسنها حتى نقل بعض انفاضها للعراف . ولما دخلت البديع مقفلى في الرحلة ورايت ما هالني قرأت عليها اياتاً انشأها محيي الدين بن عربي في كتاب المسامرات لما دخل الزاهرة فوجدها متهدمة

ديار باكتاف الملاعب تلمع وما ان بها من ساكن وهي بلقع

ينوح عليه الطير من كلّ جانب فتصمت أحياناً وحينئذ ترجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على مَ ذا تنوح وتشتكي فقال على دهر مضى ليس يرجع

وانشدت ما انشده ابن الأبار في تحفة القادم

قلت يوماً لدار قوم تفانوا أين سكّانك الكرام علينا
فاجبت هنا اقاموا قليلاً ثمّ ساروا ولست اعلم ايناً

وانشدت ايضاً قول الشاعر

وقفت بالزهراء مستبصراً معتبراً اندب اشتاتاً
فقلت يازهرء الا فارجمي قالت وهل يرجع من فاتا
فلم ازل ابكي وابكي بها هيهات يغدي الدمع هيهات
كأنما اثار من قد مضى نوابد يندبن امواتاً

فنامت لفظ البديع فوجدت عدد تقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر
وهذا القدر هو الذي بقى فيه البديع قائماً عامراً فأنه فرغ منه عام اثنين والـف
فدّة بئانه بعد تمام بنائه مائة وسبع عشرة سنة على عدد اسمه وذلك من غريب
الاتفاق والبقاء والدوام والملك التام لله الملك الديان لا يسئل عما يفعل
وهم يسألون